الدكتور محمد حسين الذهبي

الوحي .. والقرآن الكريم

الوحي ..

والقرآن الكريم

الدكتور محمد حسين الذهبي

استاذ علوم القرآن والحديث
كلية الشريعة - جامعة الأزهر

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ، مَاكُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمانُ وَلكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وإِنَّكَ لَتَهْدِىَ إلَىٰ صِرٰاطٍ مُّسْتَقِيمٍ »

« صدق الله العظيم »

* * *

الفصل الأول

الوحي ..

- تعريف الوحي وأنواعه ..
- إمكانه .. ووقوعه ..
- المعجزة .. وتعريفها ..
- دفع الشبهات حول وقوع الوحي وحول المعجزات المؤيدة له .

الوحـــى

● تعريف الوحى :

أصل الوحى فى اللغة : الإعلام فى خفاء ، ومن هنا كان له فى لسان العرب إطلاقات متعددة ، كلها يدور حول هذا المعنى العام : فيطلق على الإلهام ، والإشارة ، والكتابة ، والرسالة ، والكلام الخفى ، وكل ما ألقيته إلى غيرك[1] .

وفى إطار هذا المعنى اللغوى الشامل لكل هذه الإطلاقات ، ورد الوحى فى أسلوب القرآن الكريم بمعنى الإلهام وذلك فى قوله تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون * ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا »[2] .

وورد بمعنى الاشارة فى قوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام : « فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا »[3] .

وورد بمعنى الوسوسة فى قوله سبحانه : « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم »[4] .

وورد بمعنى إلقاء الله بما يريد إلقاءه للملائكة ، كما فى قوله : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا »[5] .

وورد بمعنى إلقاء الله بالقرآن لنبيه محمد ﷺ ، كما فى قوله مخاطبا له : « وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها »[6]

وورد بمعنى الموحى به كما فى قوله تعالى عن القرآن الكريم : « إن هو إلاّ وحى يوحى »[7] .

أما الوحى بالمعنى الشرعى : فتارة يعرفونه بأنه « كلام الله تعالى المنزل على نبى من أنبيائه » . وتارة أخرى يعرفونه بأنه « إعلام الله تعالى لنبى من أنبيائه بحكم شرعى ونحوه »[8] وظاهر أن التعريف الأول تعريف للوحى بمعنى الموحى به ، وأن التعريف الثانى تعريف للوحى بمعنى الإيحاء .

---

(١) انظر لسان العرب فى مادة (وحى). (٢) النحل : ٦٨ ، ٦٩

(٣) مريم : ١١ (٤) الأنعام : ١٢١

(٥) الأنفال : ١٢ (٦) الشورى : ٧ (٧) النجم : ٤

(٨) انظر رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص ٨٣ وهامشها .

وظاهر أيضا أن الوحى بالمعنى الشرعى لا يخرج عن نطاق المعنى اللغوى . والفرق بينهما هو الفرق بين العام والخاص ، فالوحى بالمعنى اللغوى عام يشمل كل إعلام فى خفاء ، والوحى بالمعنى الشرعى خاص لا يتناول إلاّ ما كان من الله لنبى من الأنبياء .

* * *

● **أنواع الوحى :**

وللوحى أنواع مختلفة :

١ ـ فمنه ما يكون مناما ، وذلك بأن يرى النبى ﷺ رؤيا فى منامه ، فتتحقق بعد فى اليقظة كما رآها فى نومه تماما ، ومما يشهد لهذا ما رواه البخارى فى باب بدء الوحى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب اليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء . . » إلى أن قالت : « حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجأه الملك فقال : إقرأ . . » إلى آخر الحديث .

وظاهر أن الحديث صريح فى أن هذا النوع من الوّحى وقع للنبى محمد ﷺ ـ كما وقع لغيره من الأنبياء ـ قبل البعثة ، ولعل السر فى هذا هو تهيئة النبى ﷺ لأعباء الرسالة ، وإعداده لتلقى الوحى فى اليقظة ، ولقد يدل على ذلك حديث علقمة بن قيس صاحب عبد الله بن مسعود ، قال : « إن أول ما يؤتى به الأنبياء فى المنام حتى تهدأ قلوبهم ، ثم ينزل الوحى بعد فى اليقظة »(٩) .

وليس فى حديث بدء الوحى ما يدل على عدم وقوع الوحى مناماً بعد البعثة ، بل لقد وقع ذلك بالفعل على سبيل البشرى من الله لنبيه بتحقق أمل تشوّفت له نفسه ، وتعلق به قلبه ، كما حدث أن رأى فى منامه أنه دخل هو وأصحابه مكة معتمرين ، محلقين رؤوسهم ومقصرين ، ثم تحققت هذه الرؤيا بعد فى اليقظة ، فدخلوا مكة بعد عام من صلح الحديبية معتمرين على هذا النحو الذى أراه الله فى منامه ، ونزل القرآن يحكى هذه الرؤيا وصدقها بقوله : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلّن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسكم ومقصّرين لا تخافون »(١٠) .

٢ ـ ومنه ما يكون إلهاما يلقيه الله فى قلب نبيه ، فيجد من نفسه علما ضروريا

---

(٩) ذكره ابن حجر فى فتح البارى جـ١ ص ١٠ وقال : رواه أبونعيم فى الدلائل باسناد حسن .
(١٠) الفتح : ٢٧

بأن هذا من عند الله تعالى ، ولعل هذا هو المقصود بالنفث فى الروع الوارد فى حديث رسول الله ﷺ : « إن روح القدس نفث فى روعى أن نفسا لن تموت حتى تستوفى رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب »(١١) .

٣ - ومنه ما يكون تكليما من الله لنبيه بكلام يسمعه ويدرك معناه ، مع يقينه بأنه كلام الله وليس كلام أحد سواه ، كما كلم الله موسى لما ذهب لميقات ربه الذى ضرب له أجلا أربعين ليلة ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك ، قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى »(١٢) ويقول فى آية أخرى : « وكلم موسى تكليما »(١٣) .

٤ - ومنه ما يكون بواسطة أمين الوحى جبريل عليه السلام ، وهذا أغلب أنواع الوحى لرسولنا محمد ﷺ ولغيره من الرسل ، والقرآن كله من هذا القبيل، ولم نعرف أن شيئا منه نزل على الرسول ﷺ مناما أو إلهاما أو تكليما من الله بغير واسطة ، وكل ما عرفناه من ذلك : هو أن رسول الله ﷺ كان - أحيانا - يرى فى منامه رؤيا فينزل بعدها قرآن يصدقها ، كما ذكرناه آنفا فى رؤيا دخوله مكة ، وكما ورد أنه عليه الصلاة والسلام أغفى إغفاءة رأى فيها نهر الكوثر الذى أعدّه الله له فى الجنة ، ولما استيقظ نزل عليه قوله تعالى : « إنا أعطيناك الكوثر . . »(١٤) الى آخر السورة ، وقول البعض انها نزلت مناما غير صحيح(١٥) .

ومما يشهد لنزول القرآن كله بواسطة جبريل ، قوله تعالى فى صفة القرآن الكريم : « وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين * »(١٦) ، وقوله مخاطبا نبيه محمدا ﷺ : « قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين »(١٧) .

* * *

---

(١١) قال ابن حجر فى فتح البارى جـ١ ص ٢٢ : أخرجه ابن أبى الدنيا فى القناعة ، وصححه الحاكم من طريق ابن مسعود .

(١٢) الأعراف : ١٤٣

(١٣) النساء : ١٦٤

(١٤) الكوثر : ١

(١٥) انظر شرح القسطلانى على صحيح البخارى جـ١ ص ٦١ ط : الأميرية ، وانظر الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى (النوع الخامس : الفراشى والنومى) جـ١ ص ٢٢ - ٢٣ ط : الحلبى.

(١٦) الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥

(١٧) النحل : ١٠٢

● **كيف كان يتلقى جبريل الوحى عن الله ؟ وكيف كان يتلقاه النبى ﷺ عن جبريل ؟**

أما كيف كان يتلقى جبريل الوحى عن الله ؟ فقد قيل : إنه كان يؤمر من قبل الله تعالى بحفظه من اللوح المحفوظ الذى كتب الله فيه كل شيء .

وقيل ـ وهو الراجح ـ إنه كان يتلقفه من الله تلقفا روحانيا لا ندرك كنهه ، ثم ينزل به على النبى ﷺ ، ومما يشهد لهذا القول الأخير ما رواه الطبرانى من حديث النواس بن سمعان مرفوعا الى النبى ﷺ قال : « إذا تكلم الله بالوحى أخذت السماء رجفة ـ أى رعدة ـ شديدة من خوف الله تعالى ، فإذا سمع أهل السماء صعقوا وخرّوا سجّدا ، فيكون أولهم يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، فينتهى به إلى الملائكة ، كلما مرّ بسماء سأله أهلها : ماذا قال ربنا ؟ قال : الحق ، فينتهى به حيث أمره الله من السماء والأرض »[18] .

ومهما يكن من شيء يقال فى هذا الصدد ، فالأمر غيب من غيب الله ، ولسنا مكلفين بمعرفة ما غاب عنا من ذلك ، والجهل به لا يضر ، كما أن العلم به لا ينفع .

وأما كيف كان النبى ﷺ يتلقى الوحى عن جبريل ؟ فقد كان ذلك يجرى على طريقتين .

الأولى : أن النبى ﷺ كان ينخلع عن حاله البشرية إلى الحال الملكية ، وذلك بغلبة روحانيته ، حتى يزول التنافر ، ويحصل التلاؤم الذى لابد منه بين المتكلم والسامع ، وفى هذه الحالة ، إما أن يأتى جبريل النبى ﷺ بالوحى وهو على صورته الملكية فيكلمه وهو يعى عنه ما يقول ، كما حدث ذلك فى نزوله عليه أول مرة فى غار حراء بقوله تعالى : « **اقرأ باسم ربك الذى خلق** » . . . . إلى قوله : « **علم الإنسان ما لم يعلم** »[19] .

وإما أن يأتيه مستترا ، لا يراه النبى ولا غيره ، ولكن يسمع النبى صوتا أشبه ما يكون بصوت الجرس فى شدته وتتابعه ، وقد يسمع الحاضرون حول وجه النبى صلى الله عليه وسلم دوياً كدوىّ النحل ، والنبى ـ دون غيره من الحاضرين ـ يعى ويفهم ما يسمع ، وقد وقع ذلك له مراراً ، ووردت به أحاديث عديدة .

الثانية : أن النبى ﷺ يبقى على حاله البشرية ، وجبريل هو الذى ينخلع من الصورة الملكية الى الصورة البشرية ، فينزل على النبى ﷺ فى صورة إنسان يراه

(١٨) شرح القسطلانى على صحيح البخارى جـ١ ص ٥٨ ط : الأميرية .
(١٩) العلق : ١ ـ ٥

ويراه أصحابه ، ويكلمه كلاما معتادا لا يخرج عن كلام الناس فيما بينهم ، والرسول ﷺ والصحابة يسمعون ذلك الكلام ويفهمونه ، إلا أن النبى ﷺ يدرك من أول وهلة أنه جبريل ، والصحابة لا يدركون ذلك إلا بعد تنبيه الرسول ﷺ لهم ، وقد وقع ذلك مرارا وجاءت به أحاديث ، منها : حديث عمر رضى الله عنه قال : « بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منّا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرنى عن الاسلام . . . . » الحديث ، وفى آخره أن الرسول ﷺ قال لعمر : أتدرى من السائل ؟ فقال عمر : الله ورسوله أعلم ، فقال رسول الله ﷺ : فإنه جبريل جاء يعلمكم دينكم (٢٠) .

ومما هو معروف عقلا ونقلا أن الحالة الأولى أشد الحالتين على رسول الله ﷺ : أما من ناحية العقل ، فإن انخلاع النبى ﷺ عن حالة البشرية إلى الحال الملكية ليس بالأمر السهل ، لأنه خروج عن طبيعته التى خلقه الله عليها ، ثم إن الفهم من كلام يشبه صلصلة الجرس ليس سهلا كالفهم من الكلام الذى ألفه الناس عند تخاطبهم .

وأما من ناحية النقل فقد روت السيدة عائشة رضى الله عنها : أن الحارث ابن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله . . كيف يأتيك الوحى ؟

فقال رسول الله ﷺ : « أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس - وهو أشده علىّ - فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رُجلا فيكلمنى فأعى ما يقول » . قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصّد عرقا . (٢١)

قال الحافظ ابن حجر فى تعليل قوله فى الحديث « وهو أشده علىّ » : « لأن لفهم من كلام مثل الصلصلة أشكل من الفهم من كلام الرجل بالتخاطب المعهود ، والحكمة فيه أن العادة جرت بالمناسبة بين القائل والسامع ، وهى هنا

---

(٢٠) رواه مسلم فى كتاب الايمان .

(٢١) رواه البخارى فى باب بدء الوحى . ومما يشهد لشدة الوحى فى الحالة الأولى أيضا ما رواه الامام أحمد عن عبدالله بن عمر قال : سألت النبى صلى الله عليه وسلم : هل تحس بالوحى ؟ فقال : « أسمع صلاصل ، ثم أسكت عند ذلك ، فما من مرة يوحى الى الا ظننت أن نفسى تقبض » الاتقان جـ١ ص ٤٤ .

إما باتصاف السامع بوصف القائل بغلبة الروحانية ، وهو النوع الأول ، وإما باتصاف القائل بوصف السامع ، وهو البشرية ، وهو النوع الثانى »[٢٢] .

.... وبعد ، فمما يجب أن يعلم : أن الوحى بالنسبة للأنبياء جميعا واحد لا يختلف فى شىءمطلقا ، فهو واحد فى حقيقته ، واحد فى مصدره ، واحد فى هدفه ومقصده ، مصداق ذلك قوله تعالى : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داوود زبورا * ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما »[٢٣] .

ومما يجب أن يعلم أيضا : أن الوحى لكل الأنبياء لا يخرج عن أنواعه التى ذكرناها والتى جمعها الله فى قوله : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاءإنه علىّ حكيم »[٢٤]



(٢٢) فتح البارى جـ١ ص ٢٣ . (٢٣) النساء : ١٦٣ ، ١٦٤

(٢٤) يقول بعض العلماء إن كلام الله لموسى من غير واسطة كان خصوصية له ولم يشاركه فيها أحد من الأنبياء ، ورد عليه بأن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم كلمه ربه ليلة المعراج من غير واسطة . أما كيفية هذا الكلام فغيب لا نعرفه ، وكل ما يلزمنا معرفته : أنه ليس ككلامنا : من حروف وأصوات ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . والآية من سورة الشورى : ٥١

إمكان الوحى ووقوعه

الناس أمام إمكان الوحى ووقوعه بالفعل طوائف ثلاث :

الطائفة الأولى : أصحاب الديانات السماوية الذين آمنوا بها ، وأذعنوا لها ، وهؤلاء مؤمنون بالوحى وإمكانه ووقوعه ، لأن ذلك الإيمان منهم نتيجة حتمية لإيمانهم برسلهم ، وتصديقهم لهم فى كل ما يبلغون به عن الله ، إذ الوحى ـ فى أى صورة من صوره ـ هو الوسيلة الوحيدة لتلقى الرسالات عن الله سبحانه .

هذه الطائفة لا كلام لنا معها فى إمكان الوحى ووقوعه ، لأنها متفقة معنا فى هذه القضية ، فإن كان هناك بعد ذلك إنكار من بعض أتباع الرسالات لرسالة ما غير رسالتهم ، فذلك ليس إنكاراً لإمكان الوحى فى ذاته ولا لوقوعه ، وإنما هو إنكار لأن يكون فلان (من الأنبياء) نبياً يوحى إليه من قبل الله ، وذلك يحتاج إلى إقامة الدليل على نبوته ، واثبات النبوة لنبىّ ما ، شيء خارج عن موضوعنا الذى نتكلم فيه .

الطائفة الثانية : جماعة من الفلاسفة الغربيين (فى الفترة من أوائل القرن السادس عشر الى قريب من منتصف القرن التاسع عشر) ذهبوا ـ بدافع من المادية المشككة فى كل ما سواها ـ « إلى أن مسألة الوحى من بقايا الخرافات القديمة ، وتغالت حتى أنكرت الخالق والروح معا ، وعللت ما ورد من الوحى فى الكتب القديمة بأنه : إما اختلاق من المتنبئة أنفسهم ، لجذب الناس اليهم وتسخيرهم لمشيئتهم ، واما هذيان مرضى يعترى بعض العصبيين فيخيل اليهم أنهم يرون أشباحا تكلمهم ، وهم لا يرون فى الواقع شيئا »[٢٥] .

وظاهر أن هذه الطائفة تنكر الوحى لأنها تنكر وجود الله ووجود الروح ، فهى تحتاج الى اثبات كلا الأمرين أولا ، ثم نرد عليها بعد ذلك دعوى اختلاق الأنبياء أو هذيانهم ، فنقول :

أما عن وجود الله ـ سبحانه ـ فالأدلة عليه قائمة ، نقرؤها فى كتاب الكون المفتوح دائما أمام أبصارنا وبصائرنا ، ونقرؤها بعد منطقا سليما فيما قرره علماء الكلام فى مباحث الألوهية .

---

(٢٥) دائرة معارف وجدى فى مادة (وحى) جـ١٠ ص ٧١٢ ـ ٧١٣ .

وأما عن وجود الروح ، فقد ثبت ذلك ثبوتا علميا تجريبيا لا شك فيه ، كما سترى ذلك بعد قليل وعند الكلام عن الطائفة الثالثة .

وإذاً فلا يبقى بعد ذلك إلا اقناع هؤلاء بإمكان اتصال الروح ـ وهو الملك ـ بالنبى الموحى اليه ليبلغه عن الله ما يريد ، وهذا ما سنبرهن عليه عند الكلام عن الطائفة الثالثة .

أما قولهم : ان دعوى الوحى اختلاق من المتنبئة ، أو هذيان مرضى يعترى بعض العصبيين فيخيل اليهم أنهم يرون أشباحا تكلمهم وهم لا يرون فى الواقع شيئا ، فذلك اتهام قديم ، رمى به المكابرون المعاندون رسلهم من قبل ، وهو اتهام باطل من أساسه ، فالمعجزات التى أظهرها الله على أيدى رسله ، واقترنت بالتحدى ، وانتهت الى العجز التام عن معارضتها بمثلها ، دليل صدقهم فى كل ما يبلغون به عن الله . وما عرف من سيرة الأنبياء من أنهم جميعا كانوا بين أقوامهم فى الذروة عقلا وكمالا ، وأن الله أصلح بهم أمما كانت فى الدّروة انحرافا وضلالا ، يدل ـ بيقين ـ على أنهم كانوا أبعد الناس عن الهذيان والخيال . وسوف نعرض لهذه النقطة بمزيد من الايضاح عند الكلام عن المعجزة .

الطائفة الثالثة : جماعة من العلماء والفلاسفة الغربيين ظهرت فى منتصف القرن التاسع عشر ، آمنت بالأرواح وبما لها من قدرات وتصرفات فوق ما نتصور ، وبأن هذه الأرواح يمكن استحضارها ، والتحدث اليها ، وتسخيرها فى بعض الأمور ، حتى انها لتسئل عن الخفيات فتظهرها ، وعن بعض المغيبات فتكشف عنها ، ويذكر المرحوم الأستاذ محمد فريد وجدى فى دائرة المعارف ـ بعد ما تحدث عن ظهور هذه الطائفة المؤمنة ايمانا مطلقا بعالم الأرواح ، والتى بعثت فى قضية الوحى ـ كما يقول ـ الحياة بعد أن كانت فى عداد الأضاليل القديمة ـ يذكر أن لفيفا من أساتذة الجامعات فى الدول الغربية ألفّوا فى سنة ١٨٨٢ جمعية دعيت باسم « جمعية المباحث النفسية » كان الغرض منها : « البت فى المسألة الروحية ، وتحقيق حوادثها بأسلوب النقد الصارم ، والحكم بقبولها نهائيا فى العلم إن كانت حقيقة ، أو تقرير ابعادها عن العلم والفلسفة إن كانت من الأمور الوهمية »[٢٦] .

ويذكر ـ بعد ذلك ـ : « ان هذه الجمعية مكثت نحو ثلاثين سنة ، حمصت فى خلالها ألوفا من الحوادث الروحية ، وعملت من التجارب فى النفس وقواها

(٢٦) دائرة المعارف لمحمد فريد وجدى مادة (وحى) جـ١٠ ص ٧١٣

ما لا يكاد يدرك لولا أنه مدون فى محاضر تلك الجمعية فى نحو أربعين مجلدا ضخما ، فكان من ثمرات جهادها اثبات شخصية ثانية للانسان ، أى أننا أحياء مدركون فى حياتنا الحاضرة لا بكل قوى الروح التى فينا ، بل بجزء من تلك القوى ، سمحت لنا به حواسنا الخمس القاصرة ، ولكن لنا فوق ما تعطيه لنا حواسنا هذه حياة أرقى من هذه الحياة ، لا تظهر بشىء من جلالها إلا اذا تعطلت فينا هذه الشخصية العادية بالنوم العادى ، أو النوم الصناعى (المغناطيسى) وقد جربوا ذلك على المنوَّمين نوماً مغناطيسيا ، فوجدوا : أن النائم يظهر بمظهر من الحياة الروحية لا يكون له وهو يقظان : فيعلم الغيب ، ويخبر عن البعيدين ، ويبصر ويسمع ، ويحس بغير حواسه الجسمية ، ويكون ـ وهو فى تلك الحالة ـ على جانب كبير من التعقل والادراك . قالوا : « وتكون هذه حالة الانسان فى نومه العادى ، والدليل على ذلك ما يأتيه المصابون بمرض الانتقال النومى من الأفعال المعجزة والمدارك السامية »[٢٧] .

قالوا : « وهذه الشخصية الباطنة أصبحت مدركة بالحسّ ، فان ظهور النائم نوما مغناطيسيا بهذا المظهر من العقل الراجح ، والفكر الثاقب ، والنظر البعيد ، وسريانه فى سرائر النفوس ، واكتشافه لخفايا الأمور ، وجولاته فى الأقطار البعيدة ، بينما يكون جاهلا غبيا فى حالته العادية ، أدلّ دليل على أن للانسان شخصية تحجبها هذه الحياة الجسدية ، ولا تظهر الا اذا وقع جسمه فى نوم طبيعى أو صناعى . ثم إن الرؤى الصحيحة التى تقع كفلق الصبح ، ويدرك بها الانسان أمورا غيبيَّة ، أو يحل فيها مسائل عويصة لم يحلها وهو صاح ، أو انتقاله وهو نائم واتيانه أعمالا لا يستطيع عملها وهو يقظ ، يدل كذلك على أن له شخصية باطنة أرقى من شخصيته العادية »[٢٨] .

ثم ذكر الأستاذ محمد فريد وجدى بعد ذلك : أن هناك أمورا تدل بالحس على وجود تلك الشخصية.درستها تلك الجمعية درسا مدققا ، وحققت تجارب من درسها قبلها . . وذكر من أمثلة ذلك عبقرية الحاسبين على البديهة لأعوص المسائل الرياضية التى تحتاج الى زمن كبير فى التفكير والعمل ، فيجيبون عليها على الفور وهم لا يدركون كيف وجد هذا الحل فى نفوسهم ، وحديث أحد الشعراء الغربيين عن نفسه : أنه كان ينام ـ غالبا ـ وهو يعمل قطعة من الشعر لم تتم فيستيقظ فيجدها تامة فى اليوم التالى عندما يفكر فيها . . وذكر غير ذلك

---

(٢٧) دائرة المعارف لمحمد فريد وجدى ـ مادة (وحى) جـ١٠ ص ٧١٤ .

(٢٨) المرجع السابق جـ١٠ ص ٧١٤ ـ ٧١٥ .

من الوقائع المشابهة التى لا تصدر إلا عن الشخصية الباطنية الملهمة .

غير أن هؤلاء الذين آمنوا بوجود الروح وخلودها وما لها من قوة الادراك والالهام والتأثير ، لا يرون : « أن الوحى يكون بنزول ملك من السماء على الرسول فيبلغه كلاما عن الله ، بل يكون فى تجلّى روح الانسان عليه بواسطة شخصيته الباطنية ، فتعلمه ما لم يكن يعلم ، وتهديه الى خير الطرق لهداية نفسه ، وترقية أمته »(٢٩) .

وخلاصة ما انتهت اليه هذه الطائفة الثالثة هو :

١ - أنهم يؤمنون بوجود الأرواح . . . وهذا نسلم به ولا ننكره .

٢ - وأنهم يؤمنون بأن لها ادراكا واسعا ، وقدرة فائقة ، وتأثيرا بليغا . . وهذا - أيضاً - نسلم به ولا ننكره(٣٠) .

٣ - وأن هذه الروح هى التى تنفث فى روع الأنبياء ما يعتبرونه وحيا من الله ، وأنها قد تظهر لهم متجسدة فيحسبونها من ملائكة الله التى تهبط عليهم من السماء . . . . وهذا ما لا نوافقهم عليه ، ولا نسلم لهم به .

ذلك لأنهم عللوا انكارهم للوحى بطريق الملك : « بأن الله منزه عن المكان ، وأن الملائكة - مهما قيل فى روحانيتهم وتجردهم عن المادة - لا يعقل أنهم يقابلون الله ويسمعون منه كلاما ، لأن هذا كله يقتضى التحيز وعدم التنزيه المطلق ، ولأن الملائكة مهما ارتقوا فلا يكونون أعلا من الروح الانسانى التى هى من روح الله نفسه ، فمثلهم ومثلها سواء »(٣١) .

وهذا وهم باطل ، فالله - حقا - منزه عن المكان كما يقولون . والملائكة - حقا - لا يقابلون الله كما يقولون ، ونحن حين نقول : بأن الوحى يكون عن طريق الملك ، لا ندعى أن الملك يقابل الله سبحانه ، لأن هذا يستدعى أن يكون الله - جل شأنه - فى مكان ، وهذا يقتضى التحيز الذى لا يقول به مؤمن بالله وصفاته .

وكل ما نقوله هو : أن الملك - بدون مقابلة ولا مواجهة - يتلقى الوحى عن الله - تعالى - تلقيا روحانيا لا ندرك كنهه ، ثم ينزل به على النبى ﷺ فيبلغه اليه على صورة من الصور التى ذكرنا من قبل ، وهذا كله اتصال روحى لا ينكره من يؤمن بعالم الروح .

---

(٢٩) دائرة معارف وجدى مادة (وحى) جـ١٠ ص ٧١٩

(٣٠) وان كنت لا أزال فى شك من أن الانسان يستطيع أن يسيطر على الروح ويسخرها فى أغراضه وحاجاته ، وبخاصة الأرواح العالية كأرواح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

(٣١) دائرة معارف وجدى - مادة (وحى) جـ١٠ ص ٧١٩ - ٧٢٠ .

وأما قولهم : « ان الملائكة مهما ارتقوا فلا يكونون أعلا من الروح الانسانى التى هى من روح الله نفسه ، فمثلهم ومثلها سواء » . . . . يريدون من وراء ذلك أن يقولوا : ان الملائكة ليسوا أهلا لأن يكونوا أو يكون أحدهم وسيطا بين الله والأنبياء ، لأن روحانية الملائكة دون روحانية الأنبياء التى هى من روح الله ، قولهم هذا لا نسلمه لهم أيضا ، لأن دعوى أن الروح الانسانى من روح الله ، وأنهما فى ذلك سواء ، دعوى تستلزم الجزئية ان أرادوا أنها بعض منها ، وتستلزم المشابهة ان أرادوا أنها من جنسها ، وهذا لا يتفق مع ما ثبت بالأدلة القاطعة من وحدانية الله فى ذاته وصفاته « **قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد** » .

نعم ، ان الروح الانسانى من روح الله ، على معنى أنها من روحه التى خلقها وأودعها كل كائن حىّ ، وعلى هذا نفهم قول الله عزل وجل فى شأن آدم عليه السلام : « **فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** »[٣٢] .

وعلى هذا المعنى ، فالروح الانسانى ـ ومنها أرواح الأنبياء ـ والروح الملائكى ـ ومنها روح جبريل حامل الوحى ـ سواء ، اذ الكل من خلق الله عز وجل .

على أن روح الملائكة ـ قطعا ـ أعلا وأشف من روح الأنبياء ، لأن الملائكة أرواح مجردة عن المادة ، والأنبياء بشر من جسم وروح ، والروح المجردة أقوى ـ بلا شك ـ من الروح التى تلابس الجسم وتخالطه .

نعم ، قد يكون مقام الأنبياء عند الله أفضل من مقام الملائكة ، وذلك لا يرجع الى تفاضل بينهما فى الأرواح ، وانما يرجع الى شىء آخر وراء ذلك .

* * *

● **دليل إمكان الوحـــى :**

. . . . . . مما تقدم يتبين لنا : أن الوحى للأنبياء بواسطة الملك ـ وهو جبريل عليه السلام ـ ليس بالأمر المستحيل ، لأنه لا يعدو أن يكون اتصالا بين الله والملك اتصالا روحانيا ، ثم بين الملك والنبى اتصالا روحانيا أيضا ، واتصال بعض الأرواح ببعضها الآخر ، وتأثير الأقوى منها فى الأدنى أصبح ـ وعلى الأخص عند الباحثين فى الروح ـ أمرا مسلما ، لا ينكره إلا من سفه نفسه ،

---

(٣٢) الحجر : ٢٩

وأنكر عقله ، وأغمض بصره عما أجرى ولا يزال يجرى من تجارب تنتهى حتما ـ إذا أخذت طريقها الصحيح ـ الى هذه الحقيقة التى نقول بها ، وهى أن الوحى أمر ممكن وغير مستحيل .

ولقد انتهى العالم النفسى الدكتور « ميرس » الذى كان يعمل أستاذا لعلم النفس فى جامعة كمبردج فى كتابه « الشخصية الانسانية » بعد ما تناول فى كتابه هذا موضوع العبقرية ، والوحى ، والشخصية الباطنية ، وذكر من عجائب الالهام طرائف كثيرة . . انتهى الى التسليم بأن الوحى حقيقة ممكنة ، فقال : « أنا أؤكد إذن وجود روح فى الانسان تستمد قوتها وجمالها من عالم روحانى ، وأؤكد ـ أيضا ـ وجود روح عامة فى العالم يمكن أن تتصل بها الروح الانسانية ولها بها علاقة »(٣٣) .

ويبدو أنه لا يريد من الروح العامة الا الله سبحانه ، والروح الانسانية يمكن أن تتصل به بطريق ما . . . بواسطة أو بغير واسطة ، وهذا ما يقوله ويؤكده علماء المسلمين .

* * *

● **دليل وقوع الوحى فعلا للأنبياء :**

بقى بعد ذلك أن نقيم الدليل على أن الوحى وقع فعلا للأنبياء فنقول : ان الدليل على وقوع الوحى للأنبياء بالفعل دليل منطقى سليم ، وهو : أن الوحى ممكن أخبر بوقوعه الصادق المعصوم ـ وهو الرسول ، أى رسول كان ـ وكل ممكن أخبر بوقوعه الصادق المعصوم فهو واقع فعلا ويقينا ، اذن فالوحى واقع فعلا ويقينا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

هذا دليل منطقى ، يجرى على أسلوب من أساليب المناطقة فى استدلالهم وهو لا يحتاج فى صدق نتيجته التى قررناها إلا الى صدق مقدماته التى بنينا عليها هذه النتيجة ، وهى كلها صادقة كما نوضحه .

أما أن الوحى ممكن ، فذلك ما أقمنا عليه الدليل آنفا .

وأما أنه أخبر بوقوعه الصادق المعصوم ، فذلك ـ أى الإخبار ـ أمر مسلم لا ينكره أحد ممن عاصروا الأنبياء وسمعوا منهم أنهم أنبياء يوحى اليهم ، ولا ينكره من جاءوا بعد عصر النبوة لثبوته بالتواتر الذى توارثه جيل عن جيل ، فضلا عن وروده فى الكتب المقدسة التى لا يرقى اليها الشك .

وأما أن المخبر بالوقوع ـ وهو الرسول ـ صادق معصوم ، فذلك ثابت بيقين ، لأنه ما من رسول بعثه الله فى أمة من الأمم الا وكان له من قومه

(٣٣) دائرة معارف وجدى مادة (وحى) جـ١٠ ص ٧١٩

مكذبون ، وما كان الله ليذر أنبياءه يواجهون هذا التكذيب بغير حجة دامغة ، فأيدهم بالمعجزات الدالة على صدقهم وعصمتهم من الكذب ، والتى تقوم ـ كما يقول علماء الكلام ـ مقام قول الله عزّ وجل : « صدق عبدى فى كل ما يبلغ عنى » .

وأما أن كل ما أخبر بوقوعه الصادق المعصوم فهو حق ، فذلك أمر بدهى وحتمىّ ، لأن ذلك هو قضية العصمة التى ثبتت للأنبياء بظهور المعجزات على أيديهم .

***

● **المعجـزة :**

واذا كان الدليل على وقوع الوحى قد ساقنا الى ذكر المعجزة ، فان من الواجب علينا ـ اتماما للفائدة ، وتوضيحا لبعض قضايا الدليل ـ أن نعرض للكلام عن المعجزة من بعض جوانبها المتعددة فنقول :

تعريفها : المعجزة ـ فى أصل معناها اللغوى ـ مشتقة من العجز ، وهو عدم القدرة على أمر من الأمور .

ويطلقها علماء الشريعة على الأمر الخارق للعادة الذى يظهره الله تعالى على يد نبى مرسل ، لتقوم دليلا على صدق دعوته ، وبرهانا على حقيّة رسالته .

ولقد جرت سنّة الله ـ سبحانه ـ أن يؤيد كل رسول من رسله بمعجزة خارقة للعادة ، وخارجة عن حدود المألوف للناس ، حتى يحمل المعاندين المكابرين على الايمان بهم ، والاذعان لهم ، والتسليم بكل ما جاءوا به من هداية وارشاد .

كان النبى يبعث فى قومه فيصدع بالدعوة الى الله ، فيستجيب له من شرح الله صدره لدعوته ، ويكذب به من جعلوا أصابعهم فى آذانهم حتى لا يسمعوا صيحة السماء التى تنادى عليهم : أن هبّوا من رقدتكم ، وأفيقوا من غفلتكم ، وتحرروا من قيود شهواتكم وأهوائكم . . .

ويتمادى المكذبون فى المكابرة والعناد ، فاذا بهم يرمون أنبياءهم ـ بعد الكذب ـ بالسحر تارة ، وبالجنون أخرى : فيقول المكذبون لنوح عليه السلام : « **ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين** »[٣٤] .

---

(٣٤) هود : ٢٧

ويقولون لهود عليه السلام : « **يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء** »[٣٥] .

ويقولون لصالح عليه السلام : « **إنما أنت من المسحّرين * ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين** »[٣٦]

ويقولون عن موسى وهارون : « **إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى** »[٣٧] .

ويقولون عن محمد ﷺ : « **معلم مجنون** »[٣٨] . ويقولون عنه أيضا : « **أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون** »[٣٩] .

قالوا كل هذا وأكثر منه فى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وطالبوهم بالآيات الدالات على صدق رسالاتهم ، فما كان من الأنبياء إلا أن لجأوا الى الله سبحانه ، يطلبون منه أن يؤيدهم بالآيات من عنده ، فاستجاب لهم ربهم ، وأظهر على أيديهم من المعجزات ما يشهد بصدق دعوتهم ، وتحدى الأنبياء أقوامهم أن يأتوا بمثل ما أتى الله به على أيديهم من خوارق العادات ، فعجزوا كل العجز ، وكان نتيجة ذلك أن آمن بهم العقلاء ، واستمر متشبثا بالكفر الحمقى من الجهلاء والسفهاء !! . .

وشاءت حكمة الله ـ تعالى ـ أن تكون معجزة كل نبى من جنس ما برع فيه قومه ، لتكون أبلغ فى التحدى ، وليكون العجز عن معارضتها أبلغ فى الدلالة على كونها آية من عند الله على صدق من ظهرت على يده من الأنبياء .

فمثلا : بعث الله موسى عليه السلام الى قوم برغوا فى السحر ، فأعطاه الله معجزة من هذا القبيل ولم تكن سحرا ، وانما كانت حقا أبطل الله به مخاريق سحرة فرعون .

ويصور القرآن الكريم لنا موقف التحدى الذى كان بين موسى والسحرة أبلغ تصوير بقوله : « **فجمع السحرة لميقات يوم معلوم * وقيل للناس هل أنتم مجتمعون * لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين * فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم إذاً لمن**

---

(٣٥) هود : ٥٣ ، ٥٤
(٣٦) الشعراء : ١٥٣ ، ١٥٤
(٣٧) طه : ٦٣
(٣٨) الدخان : ١٤
(٣٩) الصافات : ٣٦

المقربين * قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون * فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون * فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون * فألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون »(٤٠) .

وبعث الله عيسى الى قوم برعوا فى الطب ، فجاءهم على صدق دعواه بمعجزة من هذا القبيل ، ولكنها أبلغ مما يعرفون وفوق ما يتصورون ، فقد كان ـ عليه السلام ـ يبرىء الأكمه(٤١) والأبرص باذن الله ، وما عرف الطب لشيء من ذلك علاجا ، وكان يحيى الموتى باذن الله ، وما عرفنا ولن نعرف يوما أن طبيبا يمكنه اعادة الحياة لإنسان بعد موت محقق(٤٢) .

ويصرح القرآن بمعجزة عيسى ـ عليه السلام ـ فيقول عنه : **« ورسولا الى بنى اسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ، إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين »**(٤٣) .

وبعث الله محمدا عليه الصلاة والسلام بمعجزة القرآن الكريم ـ وهى كبرى معجزاته ـ من نوع ما برع فيه قومه وهم العرب ، وتحداهم به فعجزوا أن يعارضوه حتى فى أقصر سورة منه ، مع توفر دواعيهم لمعارضته ، وعدم المانع لهم منها، فقد كانوا فرسان البلاغة وأمراء البيان ، وكان القرآن ـ وما زال ـ فوق متناول ألسنتهم وبيانهم ، وصدق الله العظيم : **« قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »**(٤٤) .

قلنا : ان معجزات الأنبياء كانت من نوع ما برع فيه أقوامهم الذين بعثوا فيهم لتكون أبلغ فى التحدى ، وليكون العجز عنها أبلغ فى كونها آية من عند الله على صدق نبواتهم ، ونوضح ذلك فنقول .

(٤٠) الشعراء : ٣٨ ـ ٤٨ (٤١) الاكمه : من ولد اعمى

(٤٢) وانما قلنا بعد موت محقق ، لأن بعض الصحف والمجلات كثيرا ما تنشر عن بعض الأطباء أنهم أعادوا الحياة لبعض من فارقوا الحياة بعد لحظات أو ساعات من وفاتهم ، وهذا وهم منهم . والحقيقة : أن المريض لم يمت ، وانما هبط قلبه ، واختفى نبضه بحيث لا يكاد يحس ، ويدخل المريض فى غيبوبة شديدة فيظن أنه مات ، ويأخذ الطبيب فى علاجه بتدليك القلب أو نحو ذلك ، فإذا بقلب المريض تظهر فيه الحركة ، واذا بنبضه يسمع بعد ما كان خفيا ، فيقول من يجهل ذلك : ان الطبيب أعاد الحياة لميت ، وربما يدعى الطبيب ذلك للاعلان عن نفسه .

(٤٣) آل عمران : ٤٩ (٤٤) الاسراء : ٨٨

ان كل رسول بعثه الله الى قومه ، وجدهم يقيمون على شرك تمكن من قلوبهم ، وعادات مرذولة تحكمت فى سلوكهم ، فسفّه أحلامهم ، وأبطل آلهتهم ، وعاب سلوكهم ، ودعاهم الى عبادة الله وحده ، ونبذ معتقداتهم الفاسدة وعاداتهم السيئة ، فوقفوا منه موقف المعادى الشرس ، فتصدى لهم بالحجة والمنطق فما استجابوا لدعوته ، فجاءهم بالمعجزة وتحداهم جميعا أن يأتوا بمثلها ان استطاعوا ، وإلا فليسلموا له بالنبوة ، فما كان منهم إلا محاولات ضاعت كلها هباء أمام معجزاتهم التى أيدهم الله بها ، وثبت عجزهم عن معارضتها وهم من عرفوا بالبراعة فى هذا الفن الذى تحداهم الرسول بلون منه عجيب ، وكان عجزهم هذا فى وقت توّفرت فيه الدواعى للمعارضة حتى يدفعوا البطلان عن آلهتهم ، ويدرءوا السفاهة والجهالة عن أنفسهم ، ويمكّنوا لعقائدهم وعاداتهم فى الأرض بعد أن أصبحت كلها فى مهب ريح الحق المدمرة للباطل .

ولا شك أنهم تداعوا لقبول هذا التحدى ، وتآزروا جميعا على أن يخرجوا من هذه المحنة ظافرين منتصرين ، فاذا محاولاتهم كلها غثاء كغثاء السيل أمام تيار الحق الإلهى الذى جرفها فذهبت بددا ، وضاعت سدى « **فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض** »(٤٥) .

أليس معنى هذا العجز الجماعى لأمة من الأمم أمام تحدى فرد واحد منها ، مع عدم المانع من المعارضة وتوفر الدوافع اليها ـ كما قلنا ـ أكبر دليل على أنه صادق فى دعوى النبوة ؟

بلى ، انه لأكبر دليل على صدقه ، ولكن رغم ذلك تمادى المبطلون فى باطلهم ، وأخذوا يثيرون حول وقوع الوحى وحول المعجزات التى هى دلائل وقوعه للأنبياء شكوكا وأوهاما ليصلوا من وراء ذلك الى القول ببطلان الرسالات السماوية كلها ، ثم لعلهم يظفرون بعد ذلك بتشكيك مؤمن وفتنة مهتد !! . .

---

(٤٥) الرعد : ١٧

الشبهات التى أثيرت حول وقوع الوحى
وحول المعجزات المؤيدة له ، وردها

نرى لزاما علينا أن نعرض لبعض هذه الشبه ، ثم نعقب على كل منها بما يكشف عن زيفها ، ويفصح عن بطلانها فنقول :

● **الشبهة الأولى** : قالوا مشككين فى امكان الوحى ووقوعه للأنبياء عليهم السلام : لو كان الوحى ممكنا لأوحى الله الى جميع البشر ولم يخص به نفرا قليلا منهم ليكونوا وسطاء بينه وبين خلقه ، لأن تعميم الوحى بحيث يشمل كل المكلفين أدعى الى تحقيق الغرض منه ، وهو هداية الناس الى الحق والى ما فيه خير الدنيا وسعادة الآخرة .

ثم هو بعد ذلك أنفى لتكذيب الأنبياء ورميهم بما يرمون به من الخداع والسحر والجنون . . وغير ذلك من التهم التى وجهت ولا زالت توجه اليهم من المنكرين عليهم دعوى الرسالة .

والجواب عن هذه الشبهة : أن هذا الذى يهذى به المشككون المضللون ، لا يصدر الا عن جهل بحكمة الله العلى الحكيم ، ثم عن جهل بطبائع الناس واختلاف ما لديهم من صلاحية واستعداد للاضطلاع بمهام الامور وعظائمها :

أما أنه صادر عن جهل بحكمة الله ، فذلك لأن الله جلت حكمته ـ أراد للناس أن يكونوا مختلفين ، لا أن يكونوا أمة واحدة ، تساق الى الحق سوقا ، وتحمل عليه حملا ، بالوحى لكل منهم أو بأى وسيلة ملجئة ، اذ الانسان مخلوق ميزه الله بالعقل ، وألزمه بتكاليف مختلفة ، ومنحه حرية الاختيار لنفسه ، ووعده على اختياره ثوابا أو عقابا ، فلو حمل على الحق حملا بالوحى أو بأمر آخر لخرج عن كونه انسانا نيط به التكليف ، ولأصبح أشبه شئ بالحيوان الذى يقاد بالزمام ، أو لعد فى زمرة الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

وحقيقة الانسان وطبيعة تكوينه وما أراده الله له فى حياته الدنيا من خلافته فى الأرض وعمارة الكون ، تأبى أن يكون كل أفراده أنبياء يوحى اليهم ، وسنة الله فى كونه تأبى ذلك أيضا والله العليم بخلقه ومصالح عباده يقول : « ولو

شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين »(٤٦) ويقول : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين * الا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين »(٤٧) .

وأما أنه صادر عن جهل بطبائع الناس واختلاف ما لديهم من صلاحية واستعداد للاضطلاع بجلائل الأمور وعظائمها ، فذلك لأن الله ـ سبحانه ـ لم يخلق الناس كلهم على نمط واحد من العقل ، والفهم ، والادراك ، وصفاء الروح ، والقدرة على تحمل الأعباء ، وانما خلقهم متفاوتين فى ذلك كله : فمنهم الغبى ومنهم الذكى ، ومنهم الضعيف ومنهم القوى ، ومنهم من صفت روحانيته ، ومنهم من غلبت عليه ماديته ، وما يصلح له القوى الذكى لا يصلح له الضعيف الغبى ، وما يمكن أن يدركه صاحب الشفافية الروحية لا يمكن أن يدركه صاحب الحجب المادية ، والله الذى قسم الحظوظ بين عباده ، اختار من بين بنى الانسان أفرادا صنعهم على عينه ، ورباهم على رعاية منه وعناية ، وأعدهم اعدادا خاصا ليكونوا مهبط وحيه وحملة رسالاته ، « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس »(٤٨) . وقديما قال الكفار : « لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله »(٤٩) فرد الله غليهم بقوله : « الله أعلم حيث يجعل رسالته »(٥٠) .

نعم : الله أعلم بمن يصلح لهذه المهمة ومن لا يصلح ، فكيف يقال بعد ذلك : لو كان الوحى ممكنا لأوحى الله الى الناس كافة ؟ !! . .

●الشبهة الثانية : قالوا مشككين فى معجزات الأنبياء التى هى دلائل نبوتهم وآية صدقهم فيما يدعون من وحى السماء : ان المعجزات خروج على النظام الطبيعى العام ، وخرق لناموس الكون وقوانين الحياة ، وذلك ما لا يكون أبداً ، لأن الخروج عن ناموس الكون بتخلف الآثار عن مؤثراتها ، وتحقق النتائج فى الوجود بدون مقدماتها ـ كما هو الشأن فى المعجزات ـ معناه قطع لما بين جوانب الكائنات من ترابط وتماسك ، وذلك يؤدى الى الخلل والفساد الذى يتنافى مع الحكمة والمصلحة .

---

(٤٦) السجدة : ١٣

(٤٧) هود : ١١٨ ، ١١٩

(٤٨) الحج : ٧٥

(٤٩) الأنعام : ١٢٤

(٥٠) الانعام : ١٢٤

والجواب عن هذه الشبهة : هو : « ان المعجزة ليست من نوع المستحيل عقلا ، فان مخالفة السير الطبيعى المعروف فى الايجاد مما لم يقم دليل على استحالته ، بل ذلك مما يقع ، كما يشاهد فى حال المريض يمتنع عن الأكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات ، مع وجود العلة التى تزيد الضعف وتساعد الجوع على الاتلاف » .

« فان قيل : ان ذلك لابد أن يكون تابعا لناموس آخر طبيعى ، قلنا : ان واضع الناموس هو موجد الكائنات ، فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات ، غاية ما فى الأمر أننا لا نعرفها ، ولكنا نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضل من عنده » .

« على أننا بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار ، يسهل علينا العلم بأنه لا يمتنع عليه أن يحدث الحادث على أى هيئة وتابعا لأى سبب اذا سبق فى علمه أنه يحدثه كذلك »[٥١] .

ويقول الأستاذ محمد فريد وجدى فى هذا الصدد :

« قد ثبت أن النواميس الطبيعية يمكن تخلفها عن إحداث آثارها بنواميس أخرى أرقى منها ، وقد أثبت العلم الأوربى : أن معجزات الأنبياء كلها ممكنة »[٥٢] .

ويزيد ذلك ايضاحا فيقول :

« لا يوجد اليوم من يستطيع أن ينكر امكان حدوث المعجزات غير جماعة الماديين . . ولو كان هؤلاء الماديون يستعرضون أمامهم ما هدى اليه ألوف من العلماء الباحثين فى المباحث النفسية فى مشارق الأرض ومغاربها . . لرأوا أن كل هؤلاء قد هدوا بالتجارب التى أجروها على القوى النفسية الى نواميس أرقى من النواميس الحاكمة على المادة ، وفى استطاعتها فى شروط مخصوصة ابطال عمل تلك النواميس ، واحداث ظواهر جديدة خارقة للنظام الطبيعى المادى ، فأصبحت المعجزات فى نظر العالم من الممكنات ، وعلم انها تابعة ، لنواميس خاصة بها » .

ثم يستدرك الاستاذ محمد فريد وجدى على ذلك فيقول :

« أنا لا أقول ان ما يحصل فى جلسات استحضار الارواح والتجارب النفسية . . من باب المعجزات ، ولكنى أقول : ان من يتأمل فى هذه الخوارق

---

(٥١) رسالة التوحيد ص ٦٥ - ٦٦

(٥٢) دائرة معارف وجدى فى مادة (دين) جـ ٤ ص ١٠٨ .

التى تتعطل معها نواميس الطبيعة ويتحقق من حدوثها ، يعرف أن هناك نواميس روحانية أرقى من النواميس المادية ، وانه لو كانت هذه الخوارق تظهر لمجرد وجود واسطة من عامة الناس ، فكيف لا يحدث أرقى من ذلك على يد نبى مرسل ، وصل من صفاء الروح الى حيث لا تناله الهمم ولا تحوم حوله الأفكار ؟[٥٣] .

واذا ثبت ان معجزات الأنبياء خارجة عما نعرفه من ناموس الكون العام ، وأنها خاضعة لناموس إلهى آخر أرقى منه وأعلى ، وعرفنا ان ظهور المعجزات على هذا النحو غير المألوف إنما يقصد منه تأييد الأنبياءفى دعوى النبوة ليحق الله الحق ويبطل الباطل ، عرفنا ان هذا هو مقتضى الحكمة وعين المصلحة .

● **الشبهة الثالثة** : قالوا : ان المعجزات شأنها شأن كثير من المخترعات العجيبة التى تفتقت عنها عقول بعض العلماء النابغين والعباقرة الملهمين ، فما نراه اليوم وقبل اليوم من عجائب الاختراع أمر مثير للدهشة والاستغراب ، وهو لا يقل فى ذلك عن المعجزات التى ظهرت على أيدى الرسل ، وذلك مما يستقيم معه فى منطق المحاجة والمعارضة بالمثل أن نقول : ان هؤلاء النابغين العباقرة أصحاب هذه المخترعات العجيبة أنبياء يوحى اليهم .

والجواب عن هذه الشبهة : أن المماثلة بين معجزات الأنبياء ومخترعات العباقرة ممنوعة ، ذلك لأن المعجزات ليست لها أسباب معروفة ولا هى مبنية على نظريات علمية مدروسة .

إن النبى تظهر على يده المعجزة وهو لا يعرف كيف وقعت ، ولا على أى ناموس من نواميس الكون نتجت ، بل ولم نسمع أن نبيا من الأنبياء نسب شيئا من ذلك لنفسه ، أو أرجعه الى نبوغ فيه ، أو رده الى معرفة منه وعلم عنده ، ومن هنا تجرد محمد ﷺ ـ كما تجرد غيره من الانبياء ـ من الحول والطول ، فقال لمن طلبوا منه معجزات بعينها : « **سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا** »[٥٤] وقال غيره من الانبياء لاقوامهم حين طالبوهم بالمعجزات :

« **إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا باذن الله** »[٥٥] .

---

(٥٣) دائرة معارف وجدى فى مادة (عجز) جـ ٦ ص ٢٠٢ بتصرف يسير
(٥٤) الاسراء : ٩٣ (٥٥) ابراهيم : ١١

ومن هنا ـ أيضاً ـ نعلم سر فزع موسى حينما ألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ، اذ لو كان ما جاء به عن ممارسة ومدارسة لما عراه الخوف وتملكه الفزع ، حتى انه ليولى مدبرا لا يلوى على شيء ، ثم لا يسترد أمنه وطمأنينته إلا بعد أن يناديه الله عز وجل بقوله : « **يا موسى أقبل ولا تخف ، إنك من الآمنين** »(٥٦) .

أما المخترعات التى تفتقت ولا تزال تتفتق عنها عقول العباقرة من العلماء ، فذلك كله نتيجة دراسات علمية ، وأبحاث تجريبية ، ولم يدع عالم ولا عبقرى انه أتى بشيء معجز لا يقدر عليه غيره ، والشواهد ناطقة بأن العلم فى تقدم مطرد . . يأتى عالم بعجيبة علمية ، ويأتى عالم من بعده بما هو أعجب وأغرب . . ولا يزال العلماء يرقون فى سلم العلم حتى يأتى الأواخر بما لم تستطعه الأوائل ، لا لأنهم بلغوا حدّ الاعجاز ، بل لأنهم درسوا وبحثوا أكثر ممن سبقهم فكان لهم عليهم فضل فى مجال العلم والاختراع .

ثم ان معجزات الأنبياء كلها ليست بالأمر الذى يمكن لبشر ما مهما أوتى من العبقرية والنبوغ أن يأتى بمثله ، لأنها من صنع الله القادر على كل شيء ، فمثلا هل استطاع أى سحار عليم أن يقلب العصا وهى جماد أصم الى أفعى حقيقية تسعى على بطنها ، ثم تبتلع كل ما يعترضها من حبال وعصى كما فعل موسى عليه السلام ؟ .

وهل استطاع عباقرة الطب أن يبرئوا أكمهاً ولد أعمى ، أو يعيدوا الحياة لميت فارقت روحه جسده كما فعل عيسى عليه السلام ؟ .

وهل فى مقدور انسان ـ أى انسان كان ـ أن يضرب الحجر الأصم بعصاه فينشق عن ناقة عشراء كما وقع ذلك لصالح عليه السلام ؟(٥٧) .

وهل قدرت قريش ـ وهم فرسان البلاغة وأمراء البيان ـ أن يعارضوا القرآن الكريم ولو فى أقصر سورة منه ؟ . . لقد عجزوا ـ وغيرهم أعجز منهم ـ عن أن يأتوا بسورة من مثله ، وصدق الله العظيم « **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** »(٥٨) .

---

(٥٦) القصص : ٣١ .

(٥٧) هذا ما ذهب اليه جمهور المفسرين فى كون الناقة آية لصالح على صدق نبوته .

(٥٨) الاسراء : ٨٨

إن هذا العجز للبشرية كلها من معجزات الرسل مرده الى أن المعجزات مبنية على ناموس كونى خاص بها ، علمه الله وحده ، وجهله كل من سواه .

● **الشبهة الرابعة** : قالوا : ان المعجزات ليست الا من قبيل السحر والشعوذة ، فإنا نرى السحرة والمشعوذين يأتون من العجائب والغرائب بمثل ما جاء به الانبياء .

والجواب عن هذه الشبهة : أن السحر والشعوذة ، والنيرنجات[٥٩] ، وغيرها من أساليب التمويه والخداع ، فنون تدرس ، ولها قواعد معروفة ، وفيها كتب مؤلفة ، يمكن لكل انسان أن يدرسها ويبرع فيها كما برع غيره وأكثر ، وكل دارس لها يعرف عن يقين أنها بعيدة كل البعد عن مشابهة المعجزات ، وقد عرفنا آنفا أن المعجزات كلها حقائق عن الله ، لا تقوم على نظريات علمية ، ولا تتأتى لغير من خصه الله بها من الأنبياء .

وأكبر دليل على أن الدارس لفن السحر والحاذق فيه يعرف أن السحر لا يمكن أن يرقى بحال من الأحوال الى مرتبة المعجزة : ما حكاه القرآن الكريم عن سحرة فرعون من اهتمامهم وحرصهم على التغلب بسحرهم على موسى عليه السلام ، طمعا فيما وعدهم به فرعون من جائزة ، ثم ايمانهم بموسى بعد ما بهرتهم المعجزة التى أبطل الله بها سحرهم رغم ما توعدهم به فرعون من عذاب ونكال ، يقول الله تعالى مصورا لنا صراع الحق والباطل وانتصار الحق فى النهاية : « .. **فجمع السحرة لميقات يوم معلوم * وقيل للناس هل أنتم مجتمعون * لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين * فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وانكم اذاً لمن المقربين * قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون * فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون * فألقى موسى عصاه فاذا هى تلقف ما يأفكون * فألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون * قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ، إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين * قالوا لا ضير ، إنا إلى ربنا منقلبون * إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين** »[٦٠] .

---

(٥٩) النيرنجات : جمع نيرنج وهو : أخذ كالسحر وليس به ـ انظر المعجم الوسيط

(٦٠) الشعراء : ٣٨ ـ ٥١

● **الشبهة الخامسة** : قالوا : لو كانت المعجزات دليل النبوة ، لكانت الكرامات التى تظهر على أيدى بعض الأولياء دليل نبوتهم أيضا ، لأن المعجزات والكرامات من واد واحد ، اذ الكل يجرى على غير المألوف الذى اعتاده الناس ، ويقع على غير ما عرف من نواميس الكون وطبائع الأشياء .

والجواب عن هذه الشبهة : اننا لا ننكر أن يكون لبعض أولياء الله ممن صفت نفوسهم ، وسمت روحانيتهم « مشارقة فى بعض أحوالهم على شىء من عالم الغيب ، ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقق حقائقها فى الواقع »[٦١] .

غير أن هناك فارقا كبيرا بين معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء :

١ - فمعجزات الأنبياء جاءت مقرونة بدعوى النبوة ، أما كرامات الأولياء فمع كونها لا تطاول معجزات الأنبياء وانما تقاربها وتأخذ منها بشبه ، ليست مقرونة بدعوى النبوة منهم ، وانما هى مقرونة بكمال التبعية لأنبيائهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

٢ - ومعجزات الأنبياء مبنية على الظهور والاعلان ، لأنها حجتهم على دعوى النبوة ، فلابد من اظهارها واعلانها صريحة جلية أمام المكذبين الجاحدين حتى يسلّموا لأنبيائهم ويدخلوا فى دينهم .

أما كرامات الأولياء ، فمبنية على الاخفاء والاسرار ، وما يظهر منها لا يكون عن قصد للولى أو ادعاء منه للكرامة ، فكثيرا ما تظهر الكرامة على يد ولى فيشعر بها من حوله دون أن يشعر هو بها ، ولو أن وليا ادعى لنفسه الكرامة على الله حتى انه ليطلب منه الأمر الخارق للعادة فيجاب اليه ، لخرج من عداد الأولياء ، ولعد فى زمرة الأفاكين الأدعياء .

٣ - والمعجزة يجوز أن تقع بجميع خوارق العادات مهما بدت هذه الخوارق غريبة ومستبعدة .

أما الكرامة ، فانها تختص ببعض الخوارق دون بعض ، فهى تتعلق - عادة - بالخوارق التى لا تبلغ حد المعجزة فى الغرابة والاستبعاد[٦٢] . . وبعد، فما أبعد الانبياء والمرسلين عن ان يكونوا كاذبين مخادعين ، أو سحرة دجالين !! . .

معاذ الله أن يكون أحد منهم كذلك ، فهم طراز من الخلق فريد ، بعثهم

---

(٦١) رسالة التوحيد ص ٨٨

(٦٢) انظر الوحى المحمدى للسيد محمد رشيد رضا ص ١٨٤ - ١٨٦

الله للعالمين هدى ورحمة ، فهدى بهم أمما كانت سادرة فى غيها ، وأعز بهم شعوبا كانت مغلوبة على أمرها ، وشفى بما جاءوا به من الحق قلوبا معتلّة ، وقوّم بما فى أيديهم من التشريع نظما مختلّة ، ومن المنكر فى البديهة - كما يقول الأستاذ الامام - أن يصدر الصحيح عن معتلءويستقيم النظام بمختل[٦٣] .

* * *

(٦٣) رسالة التوحيد للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ص ٨٨

الفصل الثانى

القرآن الكريم

- تعريف القرآن الكريم
- الغرض من إنزال القرآن الكريم
- جوانب الهداية والإرشاد فى القرآن الكريم
- إعجازُ القرآن الكريم
- القرآن والعلم
- ترجمة القرآن الكريم

القــرآن الكــريــم

● تعريف القرآن الكريم :

المشهور بين علماء اللغة : « أن لفظ القرآن فى الأصل مصدر مشتق من قرأ . يقال : قرأ قراءة وقرآنا ، ومنه قوله تعالى « **إن علينا جمعه وقرآنه * فاذا قرأناه فاتبع قرآنه** »[1] ـ أى قراءته .

ثم نقل لفظ القرآن من المصدرية وجعل علما شخصيا[2] على الكتاب المنزل على محمد ﷺ .

وعلماء الشريعة يعرفون القرآن : بأنه كلام الله تعالى المنزل على محمد ﷺ بلفظه ومعناه ، والمنقول الينا بالتواتر .

وبعضهم يزيد على هذا التعريف قيودا أخرى ، مثل : المعجز ، أو المتحدى بأقصر سورة منه ، أو المتعبد بتلاوته ، أو المكتوب بين دفتى المصحف ، أو المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس .

والواقع أن التعريف الذى ذكرناه آنفا تعريف جامع مانع ، لا يحتاج الى زيادة قيد آخر ، وكل من زاد عليه قيدا أو قيودا مما ذكرناه لا يقصد بذلك الا زيادة الايضاح بذكر بعض خصائص القرآن التى يتميز بها عما عداه .

ومعلوم أن للقرآن الكريم خصائص كثيرة يتميز بها عن كل ما عداه من كلام إلهى أو غير إلهى ، ككونه معجزا أو متعبدا بتلاوته .

ومعلوم أيضا ـ أن للقرآن صفات يشاركه فيها غيره من كلام الله أو كلام البشر ، ولكنها صفات لازمة لا تنفك عنه ، لأنها من عناصر قرآنيته ، ولو أنها انفكت عنه لخرج عن كونه قرآنا ، وذلك كوصف كونه عربيا الذى يشاركه فيه الحديث النبوى والحديث القدسى ، وكوصف كونه متواترا الذى يشاركه فيه بعض الأحاديث النبوية .

ونرى لزاماً علينا أن نذكر بعض هذه الخصائص والصفات بشىء من

---

(١) وهناك آراء أخرى فى أصل الكلمة واشتقاقها ـ راجع الاتقان للسيوطى ، ومناهل العرفان للشيخ محمد عبدالعظيم الزرقانى ـ والآيتان من سورة القيامة : ١٧ ، ١٨

(٢) يرى بعض العلماء أنه علم جنس يصدق على القرآن كله وعلى أبعاضه . وكونه علما شخصيا هو الراجح ـ راجع مناهل العرفان .

التفصيل والايضاح حتى لا يقع لبس او خلط بين ما هو قران وما خرج أو هو خارج من الأصل عن كونه قرانا :

١ ـ فمن خصائص القران كونه معجزا ، واعجاز القرآن خصوصية خصه الله بها من بين كتبه المنزلة على سائر الانبياء عليهم السلام ، وميزة تميز بها عن كل كلام آخر منسوب لله سبحانه ، أو لأى انسان وبأى لسان .

٢ ـ ومن خصائص القران الكريم : كونه متعبدا بتلاوته فقراءة ما تيسر منه ركن من أركان الصلاة لا تتم بدونه ، وأيما صلاة وقعت خالية من القراءة مع القدرة عليها فهى باطلة ، وقراءة القرآن خارج الصلاة عبادة أيضا ، ولم نعرف مثل هذه الخصوصية ثابتة لشيء آخر من الكتب السماوية أو غيرها .

وعلى هذا فالحديث القدسى ليس قرآنا مع كونه ـ على الصحيح ـ منزلا من عند الله تعالى على محمد ﷺ بلفظه ومعناه ، وذلك لأنه فقد عنصرين من عناصر القرآنية ، وهما : الاعجاز والتعبد بتلاوته ، كما فقد عنصرا آخر يأتى بعد ، وهو التواتر .

ولو ادعى مدع ثبوت بعض الأحاديث القدسية بالتواتر ـ وما أظن ذلك ـ فانها لا تكون قرآنا أيضا لفقدها العنصرين السابقين معا ، مع أن فقد واحد منهما كاف فى تخلف وصف القرآنية عنها .

٣ ـ ومن صفات القرآن التى لا تنفك عنه : كونه عربيا ، وفى القرآن الكريم آيات كثيرة ناطقة بأنه نزل من عند الله كذلك :

« وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم »[٣] .

« وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها »[٤] .

« كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون »[٥] .

« نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين »[٦] .

وعلى هذا فأى خروج بالقرآن الكريم عن لفظه العربى المنزل من عند الله يزيل عنه حقيقة القرآنية .

وإذن فتفسير القرآن الكريم ، وترجمته الى غير العربية ـ مهما روعى فيهما من المحافظة على معانيه ومراميه ـ لا يعدان قرآنا ، ولا يكون لأى منهما ما للقرآن

---

(٣) ابراهيم : ٤

(٤) الشورى : ٧

(٥) فصلت : ٣

(٦) الشعراء : ١٩٣ ـ ١٩٥

من حرمة وقداسة[٧] ، ولا ما فيه من خاصية التعبد به وروعة الاعجاز ، لأنه خرج بذلك عن كونه كلام الله الى كونه كلام البشر ، والبشر يخطىء ويصيب ، ومحال أن تقوم عبارة انسان ـ عربية كانت أم غير عربية ـ مقام عبارة الله تعالى فى جودة معانيها ودقة مراميها ، وخصائص أسلوبها وبراعة نظمها ، وسر فصاحتها وروعة بيانها .

وهنا نستطرد الى مسألتين لهما تعلق بهذا الموضوع :

المسألة الأولى : هل معنى أن القرآن عربى أنه لا يحتوى على شىء من لغات غير عربية ؟

والجواب عن هذا : أن القرآن الكريم ليس فيه قطعا جملة مركبة بلسان غير عربى ، وانما يوجد فيه باتفاق أسماء غير عربية هى أعلام على أشخاص بأعيانهم : كإبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب،وإسرائيل ، وموسى ، وعيسى . . ووجودها فى القرآن لا يخرج به عن كونه عربيا ، لأن الأسماء التى وضعت أعلاما لأشخاص تبقى كما هى ، ولا يتصرف فيها عند نقلها الى لغات غير لغاتها الأصلية ، وإلا لكان معنى ذلك : ازالة الاسم عن مسماه واطلاق اسم آخر عليه لا يعرف به ولا يعينه .

وفى القرآن الكريم أسماء ليست أعلاما لأشخاص ، مثل : استبرق ، وقسطاس ، وسجيل ، ومشكاة . . . وغيرها .

وقد اختلف العلماء فى أصل هذه الأسماء :

فمنهم من قال ان هذه الكلمات مما اتفقت فيه اللغات ، فهى موجودة فى اللغة العربية وموجودة فى غيرها ، ولا يخرج بالقرآن عن كونه عربيا أن تكون بعض كلماته موجودة فى لغة أخرى ، لأن اتفاق بعض اللغات فى استعمال لفظ ما للدلالة على معنى معين ، لا يخرجه عن كونه أصيلا فى هذه اللغة أو فى تلك ، وإنما يخرجه فقط عن نطاق الاختصاص والانتساب الى لغة بعينها .

ومن العلماء من قال : ان هذه الألفاظ أعجمية الأصل ولا زالت أعجمية ، ووجودها فى القرآن لا يخرجه عن كونه عربيا ، لأنها قليلة جدا ، واقتباسها وادماجها فى هذه الكثرة الساحقة من الكلمات العربية التى احتواها القرآن مما يجعلها تميع وتتلاشى حتى لا تكاد تحس منها نبوة العجمة .

---

(٧) ولحرمة القرآن وقداسته لا يجوز لغير المتوضىء مس المصحف ، كما لا يجوز للجنب ولا للحائض مس المصحف ولا قراءة القرآن ، أما تفسير القرآن وترجمته فجائز مسها وقراءتها للمحدث حدثا أصغر أو أكبر ، لزوال حقيقة القرآنية عنها .

وذهب فريق ثالث من العلماء الى أن هذه الألفاظ أعجمية الأصل ، ولكنها ـ تبعا لنظرية تداخل اللغات فى فقه الله ـ استعملت من قديم وقبل نزول القرآن الكريم فى اللسان العربى ، ولانت بها ألسنة العرب حتى أصبحت عربية بالاستعمال ، ولا يخرج القرآن عن كونه عربيا باحتوائه على بعض هذه الألفاظ المعربة . وهذا الرأى الأخير هو أشهر الأقوال الثلاثة وأرجحها .

المسألة الثانية : نقل عن الأمام أبى حنيفة رضى الله عنه : أنه يرى جواز قراءة القرآن بالفارسية فى الصلاة ، وزعم زاعم ـ بناء على ذلك ـ أن أبا حنيفة يرى أن القرآن اسم للمعنى فقط ، وهذا يناقض ما قلناه من أن القرآن اسم للفظ والمعنى معا .

وتوضيح المسألة : أن ما نقل عن أبى حنيفة ـ مخالفا به سائر الفقهاء حتى أصحابه ـ من جواز قراءة القرآن بالفارسية فى الصلاة ، محمول على أن الصلاة مناجاة لله تعالى ، وما يقوله المصلى من معانى القرآن باللسان الأعجمى فى صلاته ، لا يقوله على أنه قرآن ، وانما يقوله على أنه مناجاة منه لله عز وجل ، والمناجاة بأى لسان جائزة باتفاق .

ولكن بعض الفقهاء من أتباع أبى حنيفة رضى الله عنه يرى ـ والحق معه ـ أن هذا التوجيه لما نقل عن أبى حنيفة من جواز القراءة بالفارسية فى الصلاة غير مستقيم ولا مقبول ، ويقرر : أن أبا حنيفة رجع عن قوله هذا الى القول بعدم الجواز(٨) .

٤ ـ ومن صفات القرآن التى لا تنفك عنه : كونه متواترا : أى رواه جمع كثير عن جمع كثير يحيل العقل اتفاقهم على الكذب من لدن سماعه من رسول الله ﷺ الى أن وصل الينا ، وروايته على هذا النحو تفيد اليقين بقرآنيته . وعلى هذا ، فما روى بطريق الآحاد ـ وهو ما لم يبلغ حد التواتر بأن رواه واحد ، أو رواه جماعة لا يحيل العقل اتفاقهم على الكذب ـ على أنه من القرآن لا يعتبر قرآنا ، لأن رواية الآحاد تفيد الظن ولا تفيد اليقين ، والقرآن لا يثبت بالظن أبدا .

واذن ، فما يروى بطريق الآحاد عن ابن مسعود أو ابن عباس أو غيرهما من الصحابة من بعض ألفاظ على أنها من القرآن : كقراءة أبىّ وابن مسعود فى

(٨) انظر الاسلام عقيدة وشريعة ص ٤٨٣ ـ ٤٨٤ .

كفارة اليمين « . . فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام متتابعات »[9] بزيادة لفظ « متتابعات » .

وقراءة ابن مسعود فى آية الإيلاء « فإن فاءوا فيهن فإن الله غفور رحيم »[10] بزيادة لفظ « فيهن » .

وقراءة ابن عباس فى آية الحج « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج »[11] بزيادة جملة « فى مواسم الحج » .

وقراءة سعد بن أبى وقاص فى آية الكلالة « وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت من أم فلكل واحد منهما السدس »[12] بزيادة جملة « من أم » .

. . . ما يروى من ذلك ليس قرآنا ، لفقده عنصر التواتر الذى لابد منه فى تحقق القرآنية وثبوتها ، وتسمية بعض المتأخرين من العلماء له قرآنا تساهل منهم لا أراه مقبولا ولا سائغا فى مثل هذا المقام الذى يتحتم فيه الدقة وعدم التسامح فى التعبير .

والظن بالعلماء الذين تسامحوا فعبروا عن هذه الكلمات بالقرآنية : أنهم لا يقصدون أنها قراءات مروية عمن تنسب اليه من الصحابة ، وانما قصدهم : أنها تفسيرات لهم .

أو لعل بعض الصحابة كانوا يفسرون القرآن ويرون جواز اثبات التفسير بجانب القرآن فى مصاحفهم التى كانوا يكتبونها لأنفسهم ، فظنها بعض الناس ـ لتطاول الزمن عليها ـ من أوجه القراءات التى صحت عن رسول الله ﷺ ورواها عنه هؤلاء الأصحاب .

ومهما يكن من شىء يقال فى توجيه تسميتها قرآنا فهى ليست من القرآن فى شىء ، ومن يحتج بها من الفقهاء لا يحتج بها على أنها قرآن ، وانما يحتج بها على أنها من قبيل أخبار الآحاد التى تروى عن رسول الله ﷺ ، وأخبار الآحاد مما يجب العمل به وتقوم به الحجة الا فى باب العقيدة .

٥ ـ ومن صفات القرآن اللازمة له : كونه منزلا على محمد ﷺ ، ومعنى هذا : أن ما أنزل على غيره من الأنبياء لا يكون قرآنا حتى ولو حكاه القرآن الكريم ، على معنى أن ما جاء فى التوارة ـ مثلا ـ من قصص أو أحكام ، ثم جاء القرآن

---

(٩) أصل الآية فى سورة المائدة رقم ٨٩

(١٠) أصل الآية فى سورة البقرة رقم ٢٢٦

(١١) أصل الآية فى سورة البقرة رقم ١٩٨ .

(١٢) أصل الآية فى سورة النساء رقم ١٢ .

بعد يحكيها ، لا تكون قرآنا حين نزلت على موسى ولا حين دونت فى ألواح التوراة . أما ما حكاه القرآن من ذلك بعد ، فهو قرآن من عند الله تعالى ، نزل به جبريل على قلب النبى محمد ﷺ ، ولا يخرجه عن القرآنية أن يكون مضمونه موجودا فى التوراة من قبل .

ونزيد ذلك ايضاحا فنقول :

ان القصة لها مضمون تناولته التوراة ، وتناوله القرآن ، والذى حكى القصة فى الموضعين هو الله سبحانه . . حكاها فى التوراة بأسلوب خاص ، وأنزلها على موسى عليه السلام بلسان قومه فكانت من التوراة . وحكاها فى القرآن بأسلوب خاص ، وأنزلها على محمد ﷺ بلسان قومه فكانت من القرآن .

والآيات القرآنية التى تضمنت أحكاما كانت شرعا لغيرنا وكانت مدونة فى كتبهم المنزلة كقوله تعالى : « **وكتبنا عليهم فيها**[13] **أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص** . . »[14] لا تخرج بذلك عن كونها قرآنا ، لأن الآيات التى من هذا القبيل نزلت على قلب النبى محمد ﷺ بلسان عربى ، ولا يقدح فى قرآنيتها كونها حكاية لما فى التوراة أو غيرها من الكتب .

أما الأحكام التى تضمنتها هذه الآيات فالقول الفصل فيها ما يلى :

١ ـ ان اقترنت بما يفيد نسخها بالنسبة لنا فلا تكون شرعا لنا .

٢ ـ وان اقترنت بما يفيد بقاء العمل بها فى حقنا فهى شرع لنا ، ولا نكون فى هذا متبعين لشريعة غيرنا ، بل نكون متبعين لشريعتنا التى جاء بها نبينا عليه الصلاة والسلام .

٣ ـ أما ان تجردت عن القرينة الدالة على شرعيتها أو عدم شرعيتها فى حقنا ، فهذه محل خلاف بين الفقهاء .

ففريق يقول : هى شرع لنا .

وفريق آخر يقول : ليست شرعا لنا .

ولكل من الفريقين دليله الذى يستند اليه فى توجيه مذهبه وتصويبه . وفى كتب أصول الفقه ما يغنى طالب المزيد من المعرفة .

* * *

---

(١٣) أى فرضنا على اليهود فى التوراة هذا الحكم وهو القصاص .

(١٤) المائدة : ٤٥

الغرض من إنزال القرآن الكريم

● الغرض من انزال القرآن الكريم أمران :

الأمر الأول : أن يكون معجزة لنبينا محمد ﷺ ، تشهد بصدق دعوته وحقيّة رسالته . . وسنعرض قريبا لقضية الاعجاز من جوانبها المتعددة .

الأمر الثانى : أن يكون دستورا للأمة الإسلامية : تستمد منه الهداية والرشاد ، وتستلهم منه الصواب والسداد ، وتقبس من نور تشريعه ما يأخذ بيدها الى عزّ الدنيا وسعادة الآخرة .

وصدق الله العظيم اذ يقول : « **ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم** »(١) .

وصدق الرسول الكريم حين يصف القرآن فيقول :

« فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرّد ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الذى لم تنته الجن اذ سمعته حتى قالوا : انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم »(٢) .

صدق الله ورسوله : فلا عزّ إلا والقرآن سبيل اليه ، ولا خير إلا وفى آياته دليل عليه . ولقد عرف سلفنا الصالح هذا كله ، فتمسكوا بالقرآن فعزّوا وسادوا ، . . . ثم خلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب . يأخذون عرض هذا الأدنى . ويقولون : سيغفر لنا ، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف فطبع على قلوبهم ، وأذاقهم الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون !! . .

وصدق الله العظيم : « **ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى** »(٣)

---

(١) الاسراء : ٩ . (٢) رواه الترمذى فى كتاب السنن جـ٢ ص ١٤٩ ـ ط : الأميرية

(٣) طه : ١٢٤ ـ ١٢٦

جوانب الهداية والإرشاد فى القرآن الكريم

● للقرآن الكريم فى هدايته وارشاده جوانب أربعة :

١ ـ جانب العقيدة .

٢ ـ وجانب الشريعة .

٣ ـ وجانب الأخلاق .

٤ ـ وجانب الدعوة الى النظر فى ملكوت السموات والأرض .

١ ـ أما جانب العقيدة : فقد وجهنا القرآن الكريم الى العقيدة الحقّة فى الله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء .

دعانا الى معرفة الله ـ تعالى ـ وما له من صفات الكمال والجلال ، وأنه واحد لا شريك له فى ملكه ، ولا شبيه له فى ذاته ولا فى صفاته ، وأنه الخالق المستحق للعبادة دون غيره . .

ففال فى بيان ما لله من صفات الكمال والجلال :

« قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد »(١) .

وقال : **« الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض . . . »**(٢) .

وقال : **« تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير * الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، وهو العزيز الغفور »**(٣) .

وقال : **« هو الله الذى لا إله إلا هو ، عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم * هو الله الذى لا إلٰه الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارىء المصور ، له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم . »**(٤) .

---

(١) سورة الاخلاص

(٢) البقرة : ٢٥٥

(٣) الملك : ١ ، ٢

(٤) الحشر : ٢٢ ـ ٢٤

وقال فى بيان أن الله واحد لا شريك له فى ملكه ولا شبيه له فى ذاته ولا فى صفاته :

« اننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى »(٥) .

وقال : « ذلكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خالق كل شىء فاعبدوه »(٦) .

وقال : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون »(٧) .

وقال : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون »(٨) .

وقال : « ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير »(٩) .

وقال فى بيان أنه المستحق للعبادة دون غيره :

« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب * ما قدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز »(١٠) .

وقال : « أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون * ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون * وإن تدعوهم الى الهدى لا يتبعوكم ، سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون * إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين * ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ، قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون »(١١) .

وقال : « قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ، ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين * ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين »(١٢) .

---

(٥) طه : ١٤

(٦) الأنعام : ١٠٢

(٧) الأنبياء : ٢٢

(٨) المؤمنون : ٩١

(٩) الشورى : ١١

(١٠) الحج : ٧٣ ، ٧٤

(١١) الأعراف : ١٩١ - ١٩٥

(١٢) الأحقاف : ٤ - ٦

وقال : « **أفمن يخلق كمن لا يخلق ، أفلا تذكرون** »[١٣] .

ووجهنا القرآن الكريم الى الايمان بالملائكة والرسل وما أنزل الله من كتاب فقال : « **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون** »[١٤] .

وقال : « **يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزّل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا** »[١٥] .

ويقرر القرآن الكريم عقيدة البعث والحساب والجزاء .

فيقول مقررا عقيدة البعث :

« **زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم ، وذلك على الله يسير** »[١٦] .

ويقول : « **قل إن الأولين والآخرين * لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم** »[١٧] .

ويرد على المستبعدين للبعث لبنى الانسان بعد ما تمزقت أوصالهم ورمّت عظامهم وتلاشت ذراتهم حتى انهم ليقولون مستنكرين للبعث بعد هذا التمزق والتلاشى :

« **أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون * أو آباؤنا الأولون** »[١٨] .

« **هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد** »[١٩] .

« **أئذا متنا وكنا ترابا ، ذلك رجع بعيد** »[٢٠] .

« **أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد** »[٢١] .

يرد القرآن على هؤلاء المنكرين للبعث والمستبعدين له بآيات كلها براهين قاطعة ، وحجج دامغة فيقول :

---

(١٣) النحل : ١٧
(١٤) البقرة : ١٣٦
(١٥) النساء : ١٣٦
(١٦) التغابن : ٧
(١٧) الواقعة : ٤٩ ، ٥٠
(١٨) الواقعة : ٤٧ ، ٤٨
(١٩) سبأ : ٧
(٢٠) سورة ق : ٣
(٢١) السجدة : ١٠

« وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه »[٢٢] .

« أفعيينا بالخلق الأول ، بل هم فى لبس من خلق جديد »[٢٣] .

« كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعدا علينا ، إنا كنا فاعلين »[٢٤] .

« أيحسب الانسان ألن نجمع عظامه * بلى قادرين على أن نسوى بنانه »[٢٥] .

« وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم »[٢٦] .

ثم هو يقرر بعد ذلك : أن البعث لابد أن يستتبع حسابا ، وأن الحساب لابد أن يستتبع ثوابا أو عقابا ، والا لكان الله عابثا بخلقه ، غير عادل فى ملكه ، فيقول :

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق ، لا إله إلا هو رب العرش الكريم »[٢٧] .

ويقول : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار * أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار »[٢٨] .

ويقول : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين * ما لكم كيف تحكمون »[٢٩] .

ويقول : « وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء ، قليلا ما تتذكرون »[٣٠] .

ويقول : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ، ساء ما يحكمون »[٣١] .

* * *

٢ ـ **وأما جانب الشريعة** : فقد سنّ لنا القرآن الكريم كثيرا من التشريعات والنظم التى نحتاج اليها فى عباداتنا ، ومعاملاتنا ، وصلاتنا فى مجتمعنا الإسلامى ، وعلاقاتنا بغيرنا من الدول فى السلم والحرب :

ففى العبادات : شرع الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج . . وغير ذلك من الطاعات والقرب التى يتقرب بها الانسان الى ربه ومولاه .

(٢٢) الروم : ٢٧
(٢٣) سورة ق : ١٥
(٢٤) الأنبياء : ١٠٤
(٢٥) القيامة : ٣ ، ٤
(٢٦) يس : ٧٨ ، ٧٩
(٢٧) المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦
(٢٨) سورة ص : ٢٧ ، ٢٨
(٢٩) القلم : ٣٥ ، ٣٦
(٣٠) غافر : ٥٨
(٣١) الجاثية : ٢١

وفى **المعاملات** : بين الحلال والحرام ، فأحلّ البيع وحرّم الربا ، وحرّم أكل أموال الناس بالباطل فقال : « **وأحل الله البيع وحرم الربا** »[٣٢] .

وقال : « **يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون** »[٣٣] .

وقال : « **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون** »[٣٤] .

وقال : « **ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن** »[٣٥] .

وقال : « **ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا ، وسيصلون سعيرا** »[٣٦] .

ووضع لنا القرآن الكريم أسس الاستيثاق فيما يجرى بيننا من معاملات مالية فقال فى الدين :

« **يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه** » . . الى أن قال : « **واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء** »[٣٧] .

وقال فى البيع : « **وأشهدوا إذا تبايعتم ، ولا يضار كاتب ولا شهيد** »[٣٨] .

وقال فى الاستيثاق بالرهن : « **وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة** »[٣٩] .

وقال فى الوصية : « **يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم . .** »[٤٠] .

وقال لأوصياء اليتامى : « . . . **فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم ، وكفى بالله حسيبا** »[٤١] .

ووضع القرآن الكريم أحكام الزواج ، والطلاق ، وما يتعلق بهذا وذاك من مهر ، ونفقة ، وعدة ، وحضانة ، ورضاع . .

وأرسى القرآن قواعد الأمن والطمأنينة فى المجتمع الاسلامى بما شرعه من

---

(٣٢) البقرة : ٢٧٥
(٣٣) آل عمران : ١٣٠
(٣٤) البقرة : ١٨٨
(٣٥) الانعام : ١٥٢
(٣٦) النساء : ١٠
(٣٧) البقرة : ٢٨٢
(٣٨) البقرة : ٢٨٢
(٣٩) البقرة : ٢٨٣
(٤٠) المائدة : ١٠٦
(٤١) النساء : ٦

الحدود والعقوبات على بعض الجرائم التى لا تخلو منها المجتمعات البشرية :

فقرر عقوبة القصاص فى القتل العمد بقوله :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ، الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى . . »(٤٢) .

وقرر عقوبة القتل الخطأ بقوله :

« . . . ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدّقوا ، فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله ، وكان الله عليما حكيما »(٤٣) .

ووضع عقوبة لقطاع الطرق بقوله :

« إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض . . . »(٤٤) .

ووضع عقوبة للسارق بقوله :

« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله »(٤٥) .

وشرع من العقوبات ما يصون حرمة الأعراض ويزجر عن استباحتها وانتهاكها ، فقال فى عقوبة الزانى غير المحصن من الرجال والنساء :

« الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين »(٤٦) .

وقال فى عقوبة قذف العفيفات بالزنا :

« والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون »(٤٧) .

وفى محيط المجتمع الاسلامى يعمل القرآن الكريم على تقوية ما بين المسلمين من وحدة وترابط وازالة ما عساه يقع بينهم من عوامل التفكك

---

(٤٢) البقرة : ١٧٨
(٤٣) النساء : ٩٢
(٤٤) المائدة : ٣٣
(٤٥) المائدة : ٣٨
(٤٦) النور : ٢
(٤٧) النور : ٤

والتصدع ، فيشرع لهم من الأحكام ما يجتث جذور التنازع والتناحر فيما بينهم فيقول فى جمع الكلمة ووحدة الصف :

« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا »(٤٨) .

ويقول فى القضاء على الفتن والشقاق الذى يمزق هذه الوحدة :

« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين * إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون »(٤٩) .

وفى علاج المشاكل الأسرية يشرع القرآن كثيرا من الأحكام التى تزيل أسباب الخلاف وتجعل الحياة الأسرية تمشى فى طريقها الصحيح الذى يجنبها العثرات والمكدرات ، وأبرز مثال نسوقه من هذه التشريعات الحكيمة قوله تعالى :

« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، ان الله كان عليا كبيرا * وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما ، إن الله كان عليما خبيرا »(٥٠) .

وفى علاقة المسلمين بغيرهم من الدول يضع القرآن الكريم قواعد المعاملة فى السلم والحرب :

ففى السلم : يدعو إلى مسالمة من يسالمنا بقوله :

« وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله »(٥١) .

وقوله : « . . . فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا »(٥٢) .

وفى الحرب : يدعو الى محاربة من يحاربنا بقوله :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين »(٥٣) .

---

(٤٨) آل عمران : ١٠٣
(٤٩) الحجرات : ٩ ، ١٠
(٥٠) النساء : ٣٤ ، ٣٥
(٥١) الأنفال : ٦١
(٥٢) النساء : ٩٠
(٥٣) البقرة : ١٩٠

ودعانا الى الاعداد للحرب ما دامت متوقعة بقوله :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم »[٥٤] .

وحضنا على الثبات عند لقاء الأعداء بقوله :

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون »[٥٥] .

وحرضنا على البلاء فى القتال بقوله :

« فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان »[٥٦] .

وقوله : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق »[٥٧] .

وقوله : « فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم »[٥٨] .

ونهانا عن التولى يوم الزحف بقوله :

« يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار * ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم ، وبئس المصير »[٥٩] .

ونهانا عن الخور والوهن فى طلب الأعداء بقوله :

« ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ، إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون ، وكان الله عليما حكيما »[٦٠] .

والقرآن يعطى الكافر المستأمن حق الأمان غير مروع على نفسه أو ماله فيقول :

« وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه »[٦١]

ويقرر القرآن مصير أسرى الحرب بقوله :

« فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها »[٦٢] .

---

(٥٤) الأنفال : ٦٠
(٥٥) الأنفال : ٤٥
(٥٦) الأنفال : ١٢
(٥٧) محمد : ٤
(٥٨) الأنفال : ٥٧
(٥٩) الأنفال : ١٥ ، ١٦
(٦٠) النساء : ١٠٤
(٦١) التوبة : ٦
(٦٢) محمد : ٤

ويضع القرآن أسس المعاهدات ويحتم وجوب الوفاء بها والوقوف عند بنودها ما دام العدو محافظا على ذلك من جانبه ولم يجدّ من الظروف ما يقتضى نقضها فيقول : « وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم »(٦٣)

ويقول : « . . إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ، ان الله يحب المتقين »(٦٤) .

ويقول : « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ، ان الله لا يحب الخائنين »(٦٥) .

* * *

● منهج القرآن فى بيان الأحكام :

وللقرآن الكريم فى بيان الأحكام منهج فريد اقتضته ضرورة كونه عالميا خالدا ، ويتلخص هذا المنهج فى النقاط الآتية :

١ - أن بعض أحكامه جاء بصيغة قاطعة فى الدلالة على الحكم ، فلم يكن محل اجتهاد ولا خلاف بين الفقهاء وهذا - عادة - يكون فى أصول الأحكام : كوجوب الصلاة والزكاة . وحرمة القتل والزنا . وهذه الأحكام يجب اعتقادها ويلزم العمل بها ، ومن جحدها كان بجحودها خارجا عن الاسلام .

٢ - أن بعضا آخر من أحكامه جاء بصيغة غير قاطعة فى الدلالة على الحكم ، لاحتمالها أكثر من وجه ، فكانت محلا لاجتهاد المجتهدين ، ونتج عن ذلك اختلافهم فى الرأى ، وذلك يكون - عادة - فى فروع الأحكام : كمقدار ما يجب مسحه من الرأس فى الوضوء ، وعدد الرضعات التى يتحقق بها كون المرضع أُماً من الرضاع . وهذه الأحكام الاجتهادية التى قال بها الفقهاء لا يجب اعتقاد واحد منها بعينه ، كما لا يجب العمل به إلا على المجتهد الذى توصل اليه باجتهاده ، أما المقلد فله أن يختار من بين آراء المجتهدين ما شاء .

٣ - أن القرآن لم يتناول كل الأحكام التى يحتاجها الانسان فى حياته جملة وتفصيلا ، لأنه ليس من المعقول ولا من الحكمة أن ينص القرآن على أحكام كل ما يعرض للناس من أقضية فى ماضيهم ، وحاضرهم ، ومستقبل حياتهم الممتدة إلى يوم القيامة .

---

(٦٣) النحل : ٩١

(٦٤) التوبة : ٤

(٦٥) الأنفال : ٥٨

أما أنه ليس من المعقول : فذلك أمر بدهى ، إذ لا يتصور عقل أن يتسع كتاب لهذا كله .

وأما أنه ليس من الحكمة : فذلك لأن الحكمة تقضى أن تكون الشريعة التى جعلها الله خاتمة الشرائع وجعلها للناس كافة ، شريعة يكون فيها جانب المرونة محققا حتى تتسع لأنماط من الحكم مختلفة ، يقتضيها اختلاف طبائع المكلفين وما يحيط بهم من ملابسات وظروف على مدى تاريخ الاسلام الطويل .

وحسب القرآن الكريم فى تشريعه أن يقرر الأصول العامة ، ويتناول بعض الجزئيات الهامة ويقرن كل هذا بعلة التشريع وما يهدف اليه من مصلحة ، ثم يترك للمجتهدين بعد ذلك أن يستنبطوا من الأحكام ما يلائمهم بشرط ألا يخرج عن نطاق ما قرره من الأصول العامة وما نبه اليه من علة التشريع التى هى مناط الحكم .

٤ ـ أن القرآن لم يلتزم وحدة الموضوع فى بيان أحكامه ، لأنه ليس كتاب قانون يبوب لكل موضوع بابا ثم يسرد كل مسائله ، وانما هو كتاب هداية وارشاد : يسوق الآيات تلو الآيات فى جانب من جوانب الموعظة ، ويترخى المناسبة الملائمة فيسوق فى ثنايا موعظته حكما شرعيا ، ويضفى عليه جواً من الترغيب أو الترهيب يوحى بوجوب الأخذ به ويحذر من مخالفته .

وفى جانب آخر من جوانب الموعظة يلقى بحكم آخر يضفى عليه من جو الترغيب أو الترهيب ما يحتم الأخذ به ويحذر من مخالفته .

. . . . . . وهكذا يلقى القرآن بأحكامه كلها فى أجواء مختلفة من الوعظ والهداية والإرشاد ، وفى كل مرة يحس السامع بأنه يسمع شيئا جديدا ، فيقبل عليه بشوق ولهفة دون أن يحس بسآمة أو ملل .

ثم ان القرآن الكريم نزل مفرقا ، وأحكامه نزلت مفرقة على حسب الحوادث وأسئلة السائلين وحاجات الناس ، ومن الأحكام ما هو منسوخ بأحكام أخرى ، فلو جمعت كل الأحكام : ناسخها ومنسوخها فى مكان واحد وتحت عنوان واحد ، لظهر القرآن بمظهر المتناقض فى بعض أحكامه . أما أن توضع آية متضمنة حكما فى موضع ما ولمناسبة ما ، ثم توضع آية أخرى ناسخة لها فى موضع آخر ولمناسبة أخرى ويعرف بطريق ما أن هذه ناسخة وتلك منسوخة ، فذلك يوحى بتدرج التشريع ، ويعطى القارىء المتأمل فكرة واضحة عن مراحله من غير أن يستشعر تناقضا بين أحكامه .

بقى سؤال يثار حول التشريع القرآنى وهو :

● **هل كل ما فى القرآن من تشريع يعد جديدا مبتكرا ؟**

وللجواب عن هذا السؤال نقول :

ان القرآن الكريم نزل للناس جميعا ، ونزوله - كما قلنا - كان لغرض الاعجاز أولا ، ثم ليكون مصدر هداية وارشاد بما احتواه من تشريع وتوجيهات مختلفة .

وبدهى أن أى تشريع يراد له أن يكون صالحا لتنظيم حياة أمة وعلاج مشاكلها فى حاضرها ومستقبل أمرها ، لابد أن تتوفر فيه عناصر أربعة :

١ - أن يكون ملائما للفطرة البشرية ملاءمة تامة حتى لا يصادمها ولا يعاندها فى أمر جبلت عليه ، ومن هنا حرم نكاح الأمهات والبنات فى كل الشرائع المعتبرة تحريماً باتاً ، ولو عرف أن تشريعا أباح ذلك لعدّ شذوذا وخروجا عن الانسانية الى الحيوانية .

٢ - أن يكون ملائما للقدرة الانسانية غير خارج عن طاقتها ، والا كان تعنتا وتعجيزا ينافى مفهوم التكليف الذى يهدف الى الامتثال والطاعة ، ومن هنا شرع التيسير فى كثير من الأحكام عند تحقق المشقة أو مظنتها ، كإباحة الفطر فى السفر ، والصلاة قاعدا لمن عجز عن أدائها من قيام .

٣ - أن يكون ملائما للسنن الاجتماعية فلا ينافرها ولا يعطلها ، والا كان ذلك خروجا عما تقتضيه طبيعة الجماعات فى ترابطها وتعاونها وتكاملها ، ومن هنا شرعت قوانين الولاء لولى الأمر ، وقوامة الزوج على زوجته ، وولاية الوالد على ولده القاصر .

٤ - أن يكون مراعيا للعرف وما اصطلح عليه الناس فى معاملاتهم ، ما لم يؤدّ ذلك الى مفسدة لفساده فى ذاته أو فساد ما يترتب عليه ، ومن هنا حرّم التبنى ، وحرّم الجمع بين الأختين فى الزواج ، وكلاهما كان متعارفا بين العرب قبل الاسلام ، فجاء الاسلام وحرّم الأول لفساده فى ذاته ، لأن الدعى لا يكون ابنا ، وحرم الثانى لفساد ما يترتب عليه من قطيعة الرحم التى تنشأ - عادة - بين الأختين ان كانتا تحت زوج واحد .

والقرآن الكريم راعى كل هذه العناصر المتقدمة فى تشريعه ، ونظر اليها جميعا بعين الاعتبار فيما تضمنه من أحكام كلية كانت أم جزئية ، وعلى هذا الأساس جاء تشريع القرآن الكريم على نمط يتمشى مع عمومه وعالميته . . نمط يأخذ من كل دين وعرف ما يلائم طبيعة الانسان ويدخل فى نطاق قدرته ،

ويساير تطوره الاجتماعى ، وما لا يلائم طبيعته ولا يدخل فى نطاق قدرته ، ولا يساير تطوره الاجتماعى يبطله ولا يقره ، ثم هو بعد ذلك يشرع ما يراه متمشيا مع هذا كله .

وليس من شك فى أن القرآن الكريم جاء وهناك تشريعات قائمة ، بعضها منبثق عن شرائع سماوية ، وبعضها الآخر منبثق عن أعراف خاصة لجماعات مختلفة .

وليس من شك ـ أيضا ـ فى أن القرآن الكريم وقف من كل هذه التشريعات موقف الناقد البصير : يقرّ منها ما يراه صالحا ، ويعدل منها ما يحتاج الى تعديل ، ويبطل منها ما يراه غير صالح ، ويشرع أحكاما أخرى لم تكن معروفة من قبل ، وهو فى كل هذا مشرع مستقل بنفسه ، وليس عالة على غيره من التشريعات أو الأعراف والعادات ، لأنه حين أقرّ ما أقرّ منها لم يقرّه على أنه مقلد لا رأى له ، وانما أقره لأنه جرى ويجرى على مقتضى الطبيعة الانسانية والسنن الاجتماعية ، وما كان لمشرع أبدا أن يحيد عما تقتضيه طبيعة الانسان وسنن الاجتماع والا لكان أحمق لا يعرف الحكمة ولا يدرك المصلحة .

***

● وخلاصة المقـال :

١ ـ أن ما فى القرآن من تشريع ليس كله جديدا مبتكرا .

٢ ـ وأن موقف التشريع القرآنى من الشرائع السابقة كان على النحو التالى :

(أ) أنه أقر بعض الأحكام وأبقاها معمولا بها فى الشريعة الاسلامية لملاءمتها وصلاحيتها كالقصاص والديات فى القتل وغيره من الجنايات على النفس .

(ب) أنه هذب وعدل بعضا آخر منها كالظهار الذى كان معروفا عند العرب : يقول الرجل لزوجته : أنت علىّ كظهر أمى ، فتصبح فى عرفهم محرمة عليه أبدا ، فجاء القرآن وهم على ذلك ، فعدّل حكم الظهار ، فمن ظاهر من زوجته لا يعتبره القرآن مطلقاً ولا محرما لها على التأبيد ، بل اعتبره عابثا بالحياة الزوجية ، وجزاءه على ذلك : أنه لا يحل له قربانها والاستمتاع بها حتى يكفر عن خطيئته بعتق رقبة ، فان لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، فان لم يستطع فاطعام ستين مسكينا ، وفى ذلك يقول الله تعالى معاتبا ومعاقبا :

« الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكراً من القول وزورا ، وإن الله لعفو غفور * والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من

قبل أن يتماسا ، ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير * فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتلك حدود الله ، وللكافرين عذاب أليم »[٦٦] .

(جـ) أنه ألغى بعضاً ثالثاً منها : كالتبنى الذى كان معروفا فى الجاهلية وصدر الاسلام :

كان الرجل يتبنى ولد غيره وهو يعرف ذلك فينسبه الى نفسه وتجرى عليه أحكام الابن الصلبى : من التوارث بينهما ، وعدم جواز نكاح أحدهما زوجة الآخر اذا طلقها أو مات عنها ، فجاء القرآن فأبطل التبنى وما كان يترتب عليه .

فقال فى بيان انتساب الأدعياء المتبنين :

« ... وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل * ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم »[٦٧] .

وقال فى ابطال التوارث بالتبنى :

« وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا ، كان ذلك فى الكتاب مسطورا »[٦٨]

وقال فى اباحة زواج المتبنى بزوجة من تبناه بعد فراقه لها :

« فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ، وكان أمر الله مفعولا »[٦٩] . يريد زينب بنت جحش وكان قد تزوجها زيد بن حارثه ثم طلقها ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام قد تبنى زيدا حتى كان يدعى زيد بن محمد ، فأمره الله بزواجها من بعده فكان ذلك هدما لعرف جرى عليه العرب فى الجاهلية .

(د) وقد يقر القرآن بعض ما كان شائعا من أحكام لنوع من المصلحة فيه ، ولكنه يحيط هذا الحكم الذى أقره بكثير من الضمانات حتى لا ينحرف به أحد عن حكمة التشريع .

ثم هو لا يكتفى بهذه الضمانات ، فينشئ من التشريعات ما يكاد يلغى هذا

---

(٦٦) المجادلة : ٢ ـ ٤ (٦٧) الأحزاب : ٤ ، ٥ (٦٨) الأحزاب .
(٦٩) الأحزاب : ٣٧

الحكم أو يوحى بعدم الرغبة فيه ، وذلك كالرق فقد كان شائعا بين العرب فجاء القرآن وأقر الاسترقاق فى الحرب لا على أنه إهدار لآدمية المسترق وحطم لمعانى الانسانية فيه ، وإنما أعطاه كل حقوقه كإنسان ، واعتبر الاسترقاق إدخالا له فى مدرسة الاسلام ، لعل قلبه يتفتح على ما فيه من الحق والهدى فينضوى تحت لوائه ، وفتح له مع ذلك أبوابا كثيرة يخرج منها الى الحرية التامة :

فمن ذلك : أنه جعل تحرير الرقاب المسترقة من أفضل القرب وأحبها الى الله .

ومن تخلى عن أنانيته وطوعت له نفسه عتق عبده عن سماحة نفس فقد تخطى العقبة وسلك طريقه الى الجنة .(٧٠)

ومن كان مسترقا يسعى للحصول على حريته ، فله فى مال الزكاة نصيب يأخذه ليشترى به حريته من سيده ان كان قد شح عليه بها .

ومن حلف يمينا ثم حنث فيها فكفارته اطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة .(٧١) ومن قتل مؤمنا خطأ فكفارته تحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله (٧٢) .

ومن ظاهر من زوجته ثم أراد أن يعود لها فكفارته عتق رقبة(٧٣) .

ومن أفطر متعمدا فى نهار رمضان فكفارته عتق رقبة أيضا(٧٤) .

ومن لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه .(٧٥)

ومن يتأمل الآيات القرآنية التى وردت فى الكفارات يخرج بحقيقتين هامتين :

الحقيقة الأولى : أن العتق هو الأصل فى الكفارة ، وأنه لا تخيير بين العتق وغيره من المكفرات إلا فى كفارة اليمين .

الحقيقة الثانية : أن العتق لا يعدل عنه الى البديل وهو الصوم إلا اذا لم يجد المكفر رقبة يعتقها .

معنى هذا : أن الاسلام يتشوف الى الحرية ويراها أحب الى الله وأرضى من الصوم وغيره من العبادات والقرب .

---

(٧٠) انظر الآيات ١١ ، ١٢ ، ١٣ من سورة البلد

(٧١) انظر الاية ٨٩ من سورة المائده .

(٧٢) انظر الآية ٩٢ من سورة النساء

(٧٣) انظر الآية ٣ من سورة المجادلة .

(٧٤) على خلاف بين الفقهاء فى ذلك

(٧٥) هذا نص حديث رواه الامام أحمد والامام مسلم وغيرهما وفى معناه عدة أحاديث مروية فى الصحيح .

ثم إن الاسلام يملك الرقيق نفسه ويعطيه حريته لأدنى مناسبة ، فاذا ما لاح للمسترق شعاع أمل فى الحرية من خلال نافذة ضيقة ، فتح الله له الباب على مصراعيه لينطلق منه الى الحرية الكاملة ، كالأمة يستولدها سيدها فلا يحل له أن يخرجها عن ملكه ببيع أو هبة أو نحوهما ، فاذا مات فهى حرة .

والعبد يكون بين شريكين فيعتق أحدهما نصيبه فيعتق العبد كله ، ويضمن المعتق الأول نصيب شريكه ان كان له مال ، فان لم يكن له مال قوّم نصيب من لم يعتق وسعى العبد فى تحصيله له من غير عنت ولا مشقة .

... وهكذا يقر الاسلام أمرا كان شائعا بين الناس ، ولكنه يحيطه بكل الضمانات التى تجعله لا يخرج عن نطاق الحكمة والمصلحة .. ثم هو بعد يلغيه بضروب من الجزاءات والعبادات والقرب الى الله .

***

٣ ـ **وأما جانب الأخلاق** : فقد وجهنا القرآن الكريم الى نواح أخلاقية متعددة ، ودعانا الى الأخذ بها حتى نسعد فى حياتنا الدنيا وفى الآخرة ، وحذرنا بأساليب شتى من الخروج عنها حتى لا نضل ولا نشقى ، ونبهنا الى الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة .. نبهنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما هو عليه من حسن الخلق وكريم الخصال حتى نقتدى به فقال مثنيا عليه : **« وإنك لعلى خلق عظيم »**(٧٦) .

وبين سر التفاف المسلمين من حوله واجتماع قلوبهم على محبته فقال :

« ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك »(٧٧) .

وإذا نحن تتبعنا القرآن الكريم وتقصينا ما فيه من توجيهات أخلاقية لخرجنا بعديد من الآيات التى تحوى جماع الفضائل كلها ، والتى لو تمسك بها المسلم لكان فى القمة : من سمو الروح ، وصفاء النفس ، وحسن السريرة ، وطيب المعشر ، والتى لو سادت فى مجتمع لكان مجتمعاً مثاليا فاضلا ، يقوم على الخير ، والحب ، والمودة ، والرحمة ، والطهر ، والنقاء ..

ولا نريد أن نستعرض كل ما فى القرآن الكريم من الآيات الأخلاقية الموجهة ، فذلك أمر يطول .. ولكن نكتفى ببعضها :

ففى الدعوة الى الاحسان فى معاملة الأقربين وغيرهم يقول :

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا وبذى القربى

---

(٧٦) القلم : ٤ (٧٧) آل عمران : ١٥٩

واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ، ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا »[٧٨] .

ويقول : « وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض »[٧٩] .

وفى مقابلة السيئة بالحسنة يقول :

« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم »[٨٠] .

وفى العفو عن المسىء يقول :

« .. فمن عفا وأصلح فأجره على الله »[٨١] .

ويقول لنبيه محمد ﷺ : « ولا تزال تطلع على خائنة منهم » - يعنى اليهود - « إلا قليلا منهم ، فاعف عنهم واصفح ، إن الله يحب المحسنين »[٨٢] .

ويقول : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين * الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين »[٨٣] .

وفى الحث على الصدق يقول :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين »[٨٤] .

وفى النجوى يقول :

« يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى ، واتقوا الله الذى إليه تحشرون »[٨٥] .

ويقول : « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما »[٨٦] .

وفى الحث على الأمانة يقول :

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها »[٨٧] .

ويمدح المؤمنين الأمناء ويسجل لهم الفوز والفلاح بقوله :

---

(٧٨) النساء : ٣٦
(٧٩) القصص : ٧٧
(٨٠) فصلت : ٣٤
(٨١) الشورى : ٤٠
(٨٢) المائدة : ١٣
(٨٣) آل عمران : ١٣٣ ، ١٣٤
(٨٤) التوبة : ١١٩
(٨٥) المجادلة : ٩
(٨٦) النساء : ١١٤
(٨٧) النساء : ٥٨

« قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون » . . الى أن يقول : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون »(٨٨) .

ويحذر من الخيانة فيقول :

« يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون »(٨٩) .

ويقول : « إن الله لا يحب من كان خوّاناً أثيماً »(٩٠) .

وفى الحث على العدل يقول :

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان . . »(٩١)

ويحذر من أن تكون القرابة أو العداوة سببا لعدم العدل فى القول أو الحكم فيقول : « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى »(٩٢) .

ويقول : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً »(٩٣) .

ويقول : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، إن الله خبير بما تعملون »(٩٤)

ويدعو الى التواضع وعدم التكبر والتعالى على الغير فيقول :

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » . . إلى أن يقول : « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما »(٩٥) .

ويقول : « ولا تمش فى الأرض مرحا ، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا »(٩٦) .

ويقول : « ولا تُصَعِّر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحاً ، إن الله

(٨٨) المؤمنون : ١ ـ ١١
(٨٩) الأنفال : ٢٧
(٩٠) النساء : ١٠٧
(٩١) النحل : ٩٠
(٩٢) الأنعام : ١٥٢
(٩٣) النساء : ١٣٥
(٩٤) المائدة : ٨
(٩٥) الفرقان : ٦٣ ـ ٧٥
(٩٦) الاسراء : ٣٧

لا يحب كل مختال فخور * واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير »(٩٧) .

وينهى عن السخرية واللمز والتنابز بالألقاب فيقول :

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون »(٩٨) .

وينهى عن ظن السوء ، والتجسس ، والغيبة فيقول :

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ، واتقوا الله ، إن الله تواب رحيم »(٩٩) .

ويحذر من اشاعة الفاحشة فى المؤمنين فيقول :

« إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة »(١٠٠) .

ويرشدنا الى حرمة البيوت وآدابها فيقول :

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون * فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا ، هو أزكى لكم ، والله بما تعملون عليم * ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم ، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون »(١٠١) .

ويقول : « يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات ، من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ، ثلاث عورات لكم ، ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ، طوافون عليكم بعضكم على بعض ، كذلك يبين الله لكم الآيات ، والله عليم حكيم * وإذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ، كذلك يبين الله لكم آياته ، والله عليم حكيم »(١٠٢) .

---

(٩٧) لقمان : ١٨ ، ١٩
(٩٨) الحجرات : ١١
(٩٩) الحجرات : ١٢
(١٠٠) النور : ١٩
(١٠١) النور : ٢٧ - ٢٩
(١٠٢) النور : ٥٨ ، ٥٩

ويدعو الرجال الى غض أبصارهم وحفظ فروجهم عما حرّم الله فيقول :

« قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون »(١٠٣) .

ويدعو النساء الى غض أبصارهن وحفظ فروجهن وعدم ابداء زينتهن للأجانب حتى لا يكنّ مثار فتنة فيقول :

« وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهنّ على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ، وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون »(١٠٤) .

ويقول : « يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ، وكان الله غفورا رحيما »(١٠٥) .

ويقول : « يا نساء النبى لستنّ كأحد من النساء ، إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا * وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا »(١٠٦) . . وغير أمهات المؤمنين بذلك أولى .

ويقول فى أدب الضيف :

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم ، والله لا يستحى من الحق »(١٠٧) .

* * *

---

(١٠٣) النور : ٣٠
(١٠٤) النور : ٣١
(١٠٥) الأحزاب : ٥٩
(١٠٦) الأحزاب ٣٢ ، ٣٣
(١٠٧) الأحزاب : ٥٣

٤ ـ وأما جانب الدعوة الى النظر فى ملكوت السموات والأرض : فقد وجهنا القرآن الكريم الى ما بثه الله فى الكون من آثار قدرته ودلائل ألوهيته فقال :

« إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون »(١٠٨) .

وقال : «ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم »(١٠٩) .

وقال : « وفى الأرض آيات للموقنين * وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون »(١١٠) .

وقال : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت »(١١١) .

وقال : « تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا * وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذّكر أو أراد شكورا »(١١٢) .

وقال : « ألم تر إلى ربك كيف مدَّ الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا * ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا * وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا * وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، وأنزلنا من السماء ماء طهورا * لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا * ولقد صرفناه بينهم ليذّكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا » (١١٣) .

وقال : « ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار * يقلّب الله الليل والنهار ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار * والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى

(١٠٨) البقرة : ١٦٤
(١٠٩) الروم : ٢٢
(١١٠) الذاريات ٢٠ ، ٢١
(١١١) الغاشية : ١٧ ـ ٢٠
(١١٢) الفرقان : ٦١ ، ٦٢
(١١٣) الفرقان : ٤٥ ـ ٥٠

على أربع . يخلق الله ما يشاء ، إن الله على كل شيء قدير »[114] .

وقال : « ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام * إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور »[115] .

وقال : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون »[116] .

وقال : « أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء »[117] .

وقال : « وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون »[118] .

.... وأخيرا يشير القرآن الكريم الى آيات أخرى لا يزال يكشف عنها العلم كانت وستكون الحجة البالغة لله على الناس فيقول :

« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »[119] .

* * *

● **هدف القرآن من توجيهنا إلى آثار قدرة الله :**

والقرآن اذ يوجهنا الى هذه الآثار ويلفت أنظارنا اليها ، لا يريد منا أن ننظر اليها نظرة عابرة قاصرة ، وانما يريد منا النظرة الفاحصة المتأملة ، وهو يهدف من وراء ذلك الى أمرين هامين :

أولهما : أن نأخذ منها الدليل على وجود الله وقدرته ، وعلى أنه الآله الحق الذى يستحق العبادة دون غيره .

وثانيهما : أن ننقب عما حواه الكون من خيرات وكنوز ، وأن نكشف أسراره وكوامنه حتى ننتفع بكل ما فيه من خيرات مادية ، ونستفيد بكل ما نهتدى اليه من معارف وعلوم بعد الدراسة لظواهره ومشاهده دراسة البارع المدقق والعالم المحقق .

ولقد أدرك العلماء من غير المسلمين ما في الكون من مصادر الثروة ، وموارد

---

(١١٤) النور : ٤٣ - ٤٥
(١١٥) الشورى : ٣٢ ، ٣٣
(١١٦) يس : ٣٧ - ٤٠
(١١٧) الأعراف : ١٨٥
(١١٨) يوسف : ١٠٥
(١١٩) فصلت : ٥٣

القوة ، وينابيع المعرفة ، فأخذوا جادين فى استنباط كنوز الأرض واستغلال خيراتها ، وبحثوا محققين عن خواص بعض ظواهر الكون وعوالمه ، فاذا بهم بعد الجهد والعرق يصلون الى ما كانوا يرجون ، ويحققون لأممهم غنى لا يطاول ، ومجدا لا يسامى ، وقوة لا تقهر .

وغفل المسلمون عن آيات الله البينات ، وأغمضوا عيونهم وعقولهم عن التأمل والتدبر فيما تحويه من ذخائر وتوحى به من معارف ، فكان حالهم ما نرى . . تخلف عن ركب الحضارة ، وتسول فى موكب العلم !! . . .

* * *

● **القرآن يخاطب العقل والوجدان والعاطفة :**

والقرآن الكريم حين يدعو إلى العقيدة الحقة فى الله وفى كل ما جاء عنه ، وحين يدعو إلى التزام تشريع معين فى عباداتنا أو معاملاتنا أو نظمنا الاجتماعية ، وحين يدعو الى الخلق الكريم والأدب الحميد واتخاذ ذلك منهجا لنا فى سلوكنا الشخصى وسلوكنا مع الله ومع الناس . حين يدعو القرآن الى هذا كله ، لا يدعو اليه دعوة جافة خشنة ليس فيها إلا مجرد الأمر الصارم أو النهى العنيف ، وانما يدعو اليه دعوة الحكمة العاقلة ، فيورده بأسلوب الأمر أو النهى مقرونا بوسائل الاقناع بصدقه ، وصلاحيته ، وحسن عاقبته .

ووسائل الاقناع متعددة :

فتارة يكون الاقناع عن طريق العقل ، وتارة يكون عن طريق الوجدان ، وتارة ثالثة يكون عن طريق العاطفة .

ولقد سلك القرآن الكريم فى دعوته هذه الطرق الثلاثة :

خاطب العقل : لأن من الناس من لا يؤمن الا بالدليل العقلى ، ومن ذلك قوله تعالى : « **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض** »[١٢٠] .

وقوله : « **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** »[١٢١] .

وكلتا الآيتين دليل منطقى واضح يدركه من له إلمام بأساليب المناطقة فى استدلالهم ويدركه كل من له عقل يعى ولو لم يكن على علم بأسلوب المناطقة .

(١٢٠) المؤمنون : ٩١ (١٢١) الأنبياء : ٢٢

ثم هناك آيات الله فى السموات والأرض وفى أنفسنا ، وكلها براهين عقلية تشهد بوجود الله وربوبيته ، والقرآن الكريم - فى أكثر من آية - يلفت أنظارنا إلى هذه الدلائل والبراهين حتى تقوم الحجة لله على الناس .

وخاطب القرآن الوجدان : لأن من الناس من لا يحفزه الى الانقياد والطاعة إلا ما يحرك وجدانه، ويثير فيه جانب الرغبة أو الرهبة ، فاذا ما أمر بمعروف وقرن الأمر بالترغيب رغبت نفسه فى الامتثال أملا فى الثواب ، واذا ما نهى عن منكر وقرن النهى بالترهيب كف نفسه عنه رهبة من الوقوع تحت طائلة العقاب .

وكثيرا ما نجد فى القرآن الكريم آيات تحرك فى الوجدان نوازع الخير بما تضمنته من وعد بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة ، وآيات أخرى تنيم فى الوجدان نوازع الشر بما تضمنته من وعيد بشقاء الدنيا وعذاب الآخرة .

فمن الآيات التى تحرك فى الوجدان نوازع الخير وتبعث على امتثال الأوامر الإلهية : قوله تعالى : « **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** »(١٢٢) .

وقوله : « **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** »(١٢٣) .

وقوله : « **ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم** »(١٢٤) .

ومن الآيات التى تنيم فى الوجدان نوازع الشر وتبعث فى النفس الخوف من الوقوع فيما نهى الله عنه :

قوله تعالى : « **وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** »(١٢٥) .

وقوله : « **وأما الذين فسقوا فمأواهم النار ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها**

---

(١٢٢) النور : ٥٥

(١٢٣) النحل : ٩٧

(١٢٤) النساء ١٣

(١٢٥) النحل : ١١٢

أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون * ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون »[126] .

وخاطب القرآن العاطفة : لأن من الناس من لا يستجيب لدعوة الخير إلا اذا خوطب بما يهز عاطفته ويوقظ فى نفسه كوامن الحب والشفقة والرحمة.

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو الى عمل البر والخير ، وأخرى تنهى عن ارتكاب بغض ما لا يليق بالانسان ، وهذه وتلك تأتى مقرونة بما ينبه العواطف الانسانية ويثيرها حتى تكون المحرك الدافع لفعل الخيرات والمبرات ، والمثبط المعوق عن ارتكاب الحماقات والموبقات .

فمن الآيات المقترنة بما يحرك العواطف الدافعة الى فعل الخيرات والمبرات :

قوله تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا »[127] .

وقوله : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم »[128] .

ومن الآيات المقترنة بما يحرك العواطف المعوقة عن ارتكاب الحماقات والموبقات :

قوله تعالى : « . . . ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا »[129] .

وقوله : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً * وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا »[130] .

وقوله : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا »[131] .

وقوله : « ولا تلمزوا أنفسكم »[132] .

وقوله : « ولا تقتلوا أنفسكم »[133] .

---

(١٢٦) السجدة : ٢٠ ، ٢١
(١٢٧) الاسراء : ٢٣ ، ٢٤
(١٢٨) الحجرات : ١٠
(١٢٩) الحجرات : ١٢
(١٣٠) النساء : ٢٠ ، ٢١
(١٣١) النساء : ٩
(١٣٢) الحجرات : ١١
(١٣٣) النساء : ٢٩

يريد : أن المؤمن وأخاه كنفس واحدة فمن عاب أخاه فكأنما عاب نفسه ، ومن قتل أخاه فكأنما قتل نفسه .

. . . . . وهكذا يخاطب القرآن الكريم العقل والوجدان والعاطفة حتى يصل الى القلوب بتعاليمه ومفاهيمه من كل هذه النوافذ ، وتلك رحمة من الله بعباده الذين شرحوا صدورهم للقرآن ولم يوصدوا دونه هذه المنافذ ويضعوا عليها أقفالا من المكابرة والعناد .

* * *

إعجاز القرآن الكريم

● **معنى الإعجاز :**

تطلق كلمة الإعجاز فى اللغة ويراد بها اثبات العجز وإظهاره .

وإعجاز القرآن الكريم معناه : إثبات عجز العرب وغيرهم عن الإتيان بمثله ، فيظهر بذلك صدق النبى ﷺ فى دعواه الرسالة ، وأن القرآن ليس من كلامه ، ولا هو فى مقدور أحد ، وإنما هو كلام الله عز وجل .

* * *

● **القرآن معجزة النبى الكبرى :**

والقرآن معجزة النبى الكبرى ، وهو يتميز عن سائر معجزات الأنبياء بأمور :

١ ـ أنه يحتوى على أصول الدعوة المحمدية وما يكتنفها من هداية وإرشاد ، وذلك أبلغ فى الدلالة على النبوة ، لأن ما احتواه من ذلك لا يمكن أن يكتسب بالتعلم وإنما هو بوحى من الله ، ومن هنا كان القرآن كافيا ومغنيا عن كل ما طلبه المتعنتون من معجزات تحدياً له عليه الصلاة والسلام ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم »[١] .

٢ ـ أن القرآن معجزة العقل ، لأنه يخاطب العقل دائما ولا يجمد عند الحسّ كمعجزات الأنبياء السابقين ، ولقد نوّه رسول الله ـ ﷺ ـ بذلك فى حديث له فقال : « ما من نبى من الأنبياء إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة . »[٢] .

٣ ـ أن القرآن الكريم معجزة خالدة باقية على مدى الدهر ضرورة أنه معجزة الدين الخالد ، فهو شاهد أبداً بصدق محمد ﷺ ، أما معجزات الأنبياء السابقين ، فقد كانت تنتهى بانتهاء وقت وقوعها ثم لا يبقى لها أثر بعد ذلك إلا فى نفس من شهدها .

* * *

---

(١) العنكبوت : ٥١

(٢) رواه أحمد وغيره عن أبى هريرة

● **القرآن بين تكذيب العرب له وتحديهم به :**

ولقد أيّد الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً - ﷺ - بمعجزة القرآن من أول يوم بعثه رسولاً للعالمين . ولكن قومه كذبوه ، وزعموا أن ما يتلوه عليهم من القرآن ليس من عند الله ، وقالوا عنه : « **أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلاً** »(٣) .

فأوحى الله إلى نبيه بقوله : « **قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض** »(٤) .

وقوله : « **وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، إذن لارتاب المبطلون** »(٥) .

وقالوا : « **إنما يعلمه بشر** »(٦) فرد الله عليهم بقوله : « **ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين** »(٧) .

وقالوا : « **شاعر نتربص به ريب المنون** »(٨) . فرد عليهم بقوله : « **وما علمناه الشعر وما ينبغى له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين** »(٩) .

قالوا عنه هذا وأكثر ، ورد الله عليهم بما ذكرنا وأكثر مما يبطل زعمهم ، ولكنهم تمادوا فى غيهم ، واستمروا فى تكذيبهم وعنادهم ، فلم يكن بعد ذلك إلا أن يلقمهم حجراً يسّد أفواههم حتى لا ينسبوا بفرية ، ويدفع عنادهم حتى لا يقوى على أن يتصدى للحق أو يعترض طريقه .

لم يبق إلا أن يتحداهم الله ، ويتحدى الإنس والجن جميعا أن يأتوا بمثل القرآن ما دام القرآن فى زعمهم من صنع البشر - محمد أو غيره - وليس من عند الله عز وجل .

ولقد جرى ذلك التحدى على تدرج ملحوظ :

تحداهم أولاً أن يأتوا بمثل القرآن فقال :

« **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** »(١٠) فما كان منهم إلا العجز التام .

---

(٣) الفرقان : ٥
(٤) الفرقان : ٦
(٥) العنكبوت : ٤٨
(٦) النحل : ١٠٣
(٧) النحل : ١٠٣
(٨) الطور : ٣٠
(٩) يس : ٦٩
(١٠) الاسراء : ٨٨ .

ثم تنزل معهم فى التحدى ، فقال آمراً لنبيه ﷺ وقد رموه بالافتراء على الله فى نسبة القرآن إليه : « **قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين** »(١١) . فعجزوا كل العجز عن ذلك أيضا .

ثم نزل إلى أدنى من ذلك فقال : « **قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين** »(١٢) .

وقال : « **وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين** »(١٣) فما استطاعوا معارضة ذلك القدر القليل .

ثم نزل إلى أدنى درجات التحدى فقال : « **فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين** »(١٤) فعجزوا عن أن يأتوا بحديث مماثل له . . أى حديث كان طال أم قصر ، ولزمهم العجز عن معارضته هم ومن وراءهم إلى يوم القيامة .

ولم يكن عجزهم هذا ناشئاً عن كون القرآن غريبا عليهم فى لغته ، بل كان من جنس كلامهم وبلغتهم التى يتكلمون بها ، ولم يكن عدم معارضتهم له ناتجا عن عدم اهتمامهم بالمعارضة أو عدم اكتراثهم بالتحدى ، فقد أثار القرآن اهتمامهم بالمعارضة ، وبعث فيهم الرغبة الملحة فى قبول التحدى والعمل على حطمه والخروج من المأزق الذى وضعهم فيه ، بما كان منه من تسفيه أحلامهم بنحو قوله عنهم : « **إن هم إلا كالأنعام ، بل هم أضل** »(١٥) .

وتحقير آلهتهم بنحو قوله : « **إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب** »(١٦)

ومع ذلك الاستفزاز فقد وقفوا عاجزين أمام هذا التحدى ، ولم نجد لهم معارضة يمكن أن تجارى أو تدانى القرآن فى أسلوبه ونظمه ، أو فى أى جانب من جوانب إعجازه التى سنذكرها ، وما ترويه لنا بعض كتب الأدب أو غيرها

---

(١١) هود : ١٣
(١٢) يونس : ٣٨
(١٣) البقرة : ٢٣ ، ٢٤
(١٤) الطور : ٣٤
(١٥) الفرقان : ٤٤
(١٦) الحج : ٧٣

من محاولات لمعارضة القرآن لم تخرج ـ فى الواقع ـ عن كونها محاولات سخيفة ، ليس فيها من براعة النظم ولا من دقة المعنى شيء مطلقا ، وإنما هى هذيان كهذيان المحموم ، عار من كل شيء إلا من ركاكة النظم وفساد المعنى .

*** *

● **جوانب الإعجاز فى القرآن الكريم :**

وجوانب الإعجاز فى القرآن الكريم متعددة وهى :

١ ـ فصاحة كلماته .

٢ ـ براعة نظمه ، وجزالة أسلوبه .

٣ ـ بلاغته فى الدلالة على معانيه .

وهذه الثلاثة يمكن أن نجمعها تحت عنوان واحد هو « **الإعجاز البيانى** » .

ولا شك أن القرآن الكريم قد تميز عن كل ما عداه من كلام إلهى وغير إلهى بأسلوب فريد ، بلغ الغاية فى جزالته وبلاغته ، ولو جئنا بأبلغ عبارة نطق بها العرب ووضعناها بجانب عبارة فى موضوعها جاء بها القرآن الكريم ، لوجدنا بين العبارتين فرقا بلاغيا كبيراً ، فأبلغ عباراتهم فى القصاص « القتل أنفى للقتل » وعبارة القرآن فى هذا الباب « **ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب** »[١٧] وقد تناول علماء البلاغة كلتا العبارتين بالتحليل البلاغى ، وبينوا ـ بما لا يقبل الشك ـ أن عبارة القرآن فوق العبارة المأثورة عن العرب بمراتب كثيرة .

وبلغاء العرب ـ بسليقتهم ـ يدركون هذا التفوق البياني للقرآن الكريم حتى إن أحدهم . وهو الوليد بن المغيرة ـ يسمع القرآن من محمد ﷺ ، فيبهره أسلوبه وبلاغته ، ويعجب به أيما إعجاب ويشيع ذلك عنه ، فيأتى إليه أبو جهل ويطلب منه أن يقول فى القرآن قولاً يبلغ قومه أنه منكر له ، فيجيبه الوليد بقولته المشهورة : « وماذا أقول ؟ فو الله ما فيكم أحد أعلم بالشعر : لا برجزه ، ولا بقصيده منى ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو وما يُعلى ، وإنه ليحطم ما تحته » .

ولا نطيل بالكلام عن بلاغة القرآن ، فذلك موضوع واسع ، تولاه بالبحث والبيان كثير من العلماء ، ولهم فى ذلك مؤلفات كثيرة ومشهورة .

---

(١٧) البقرة : ١٧٩

٤ ـ اشتماله على حوادث وقعت فى الأزمان الغابرة ، ولم يكن للنبى ﷺ علم بها ، لا عن معلم ، ولا عن كتاب ، ولا عن أى طريق أخرى غير القرآن ، كقصة موسى وغيره من الأنبياء ، وفى هذا يقول الله سبحانه مخاطبا نبيه محمداً ﷺ ـ بعد ما قص عليه من خبر موسى وقومه ـ « **وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين * ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر، وما كنت ثاوياً فى أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين * وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون** »(١٨) .

٥ ـ اشتماله على أمور غيبية ، وحوادث مستقبلة ، أخبر بها وتحقق وقوعها فيما بعد ، كقوله تعالى : « **آلم * غلبت الروم * فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم** »(١٩)

٦ ـ اشتماله على التشريعات الروحية ، والأدبية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والمالية، التى كان ـ ولا زال ـ لها أكبر الأثر فى إصلاح المجتمع الإنسانى واستقراره ، لبلوغها مرتبة الكمال التشريعى ، ولخلوها من كل الثغرات التى تشتمل عليها القوانين الوضعية ، وقد ذكرنا ـ عند الكلام عن جوانب الهداية القرآنية كثيراً من التشريعات التى جاء بها القرآن ، والتى نظمت علاقة الإنسان بربه ، وبأخيه الإنسان .

٧ ـ اشتماله على كثير من العلوم والمعارف التى كشف عنها العلم فيما بعد ، ولا زال يكشف عنها إلى اليوم ، وسوف يظل يكشف عنها على مدى الدهر ، وإلى الأبد .

ولا نريد أن نستقصى كل ما حواه القرآن تصريحاً ، أو تلميحاً ، من علوم كونية ، وإنما نكتفى بثلاثة أمثلة نذكرها كشواهد على الإعجاز العلمى للقرآن الكريم :

المثال الأول : قوله تعالى فى الآية (٣٠) من سورة الأنبياء « **أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما** » فقد فسرها عبد الله بن عباس على ضوء ما وصل اليه العلم فى زمانه تفسيراً تحتمله الآية فقال :

---

(١٨) القصص : ٤٤ ـ ٤٦ (١٩) الروم : ١ ـ ٥

« كانت السماء رتقاء لا تمطر ، والأرض رتقاء لا تنبت ، ففتق هذه بالنبات ، وتلك بالمطر »

وفسرها علماء العصر الحديث على ضوء ما توصلوا اليه من العلم فقالوا : « قرر الكتاب الكريم أن الأرض كانت جزءاً من الشمس ، وأن حادثا كونيا جذب قطعة من الشمس وفصلها عنها ، وأن هذه القطعة ـ بعد أن مرت عليها أطوار ـ تكسرت وصارت قطعاً ، كل قطعة منها صارت سياراً من السيارات ، وهذه السيارات طافت حول الشمس ، وبقيت فى قبضة جذبتها ، والأرض واحدة من هذه السيارات ، فهى بنت الشمس ، والشمس هى المركز لكل هذه السيارات »[٢٠] .

ولا نكاد نجد تعارضا بين الفهمين ، والآية تحتملهما وتتسع لهما ، وذلك ـ بلا شك ـ وجه من وجوه الإعجاز للقرآن الكريم .

المثال الثانى : قوله تعالى فى الآية (٥) من سورة يونس « **هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً** »وقوله فى الآية (٦١) من سورة الفرقان « **تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً** »أليس فى هاتين الآيتين دلالة صريحة على ما توصل اليه العلم الحديث من أن الشمس كوكب مضىء ، وأنها كالسراج نوره من ذاته ، وأن القمر كوكب معتم نوره مستمد من غيره ؟ وهل يستطيع محمد ﷺ وهو النبى الأمى ، والعلم بالأكوان والأفلاك لا زال فى مدرج الطفولة ـ أن يقرر هذه الحقيقة من تلقاء نفسه ؟ كلا ، إنه من علم الله العليم الخبير . . أودعه فى القرآن فكان من وجوه إعجازه .

المثال الثالث : قوله تعالى فى الآيتين (٣ ، ٤) من سورة القيامة « **أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه * بلى قادرين على أن نسوى بنانه** »يقرأ العربى هذه الآية فى عصر نزول القرآن فيفهم منها أنها تدل على أن الله قادر على أن يعيد الإنسان عند البعث بشراً سوياً ، بكل أعضاء جسمه ، وعلى صورتها الأولى ، حتى ما دق خلقه من هذه الأعضاء وهو البنان ، ونقرؤها اليوم على ضوء العلم فنراها تنطوى على ما توصل إليه العلماء من أن (بصمات) أنامل اليد لا تتشابه عند بنى الإنسان ، فكل فرد له بصمات يتميز بها عن غيره ، ويمكن أن تكشف عن شخصيته . وإعادة هذه البصمات المختلفة المتمايزة عند الحياة الثانية على ما كانت عليه لكل فرد عند الحياة الأولى شىء لا يعظم على

(٢٠) انظر التفسير والمفسرون جـ ٣ ص ٢٧٠

الله سبحانه ، ولا شك أن انطواء الآية على هذه الحقيقة العلمية التى لم يكشف عنها العلم إلا حديثا ضرب من ضروب الإعجاز العلمى للقرآن الكريم .

٨ ـ سلامة القرآن من الاختلاف والتناقض ، ولا شك أن هذا جانب من جوانب إعجاز القرآن الكريم ، فالقرآن كتاب حافل بالقضايا العقلية ، والتشريعات الفقهية ، والحقائق العلمية ، والتاريخ ، والقصص ، والأمثال ، والأخبار عن وقائع ماضية وحاضرة ومستقبلة ، وهو فى ذلك كله صادق لا يرقى إليه كذب ، مصيب لا يعتريه خطأ ، واضح لا يشوبه لبس ، متناسق لا يعترض نسقه تناقض أو تعارض ، مؤتلف غير مختلف .

ولا يكاد يتم ذلك بحال من الأحوال لكتاب جمع الكثير من ألوان المعرفة وضروب الهداية والإرشاد ، وضم الكثير من القصص والأخبار ، ووزعها وكررها فى مواضع شتى على نحو من الإيجاز تارة ومن الإطناب أخرى ، مع تفاوت وتغاير وتفنن فى التعبير يجعل القارىء مشدوداً دائماً إلى قراءته وسماعه دون سآمة أو ملل أو إحساس بنبوة . . لا يكاد يتم ذلك بحال من الأحوال إلا للقرآن ، لأنه كلام الله الذى لا يضل ولا ينسى ، وصدق الله العظيم حيث يقول : « **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً** »(٢١)

هذه هى جوانب الإعجاز للقرآن الكريم ، أو هى أهم جوانبه .

ولقد نرى بعض العلماء يذهبون إلى أن إعجاز القرآن لا يرجع إلى أى من هذه الوجوه المذكورة ، وإنما يرجع إلى الصرفة ، ومعنى ذلك ـ على حد قولهم ـ أن القرآن الكريم كان فى متناول العرب أن يأتوا بمثله ، ولكن الله صرفهم عن معارضته فصاروا بذلك عاجزين عنها . وهذا قول باطل لأنه يلزم عليه :

١ ـ أن يكون القرآن فى مستوى كلام البشر ، وهذا مخالف للواقع ، وأرباب البلاغة من المشركين أنفسهم قد اعترفوا بأنه فى أعلا درجات البلاغة التى لا يتطاول إليها أحد منهم ، وفى وصف الوليد بن المغيرة للقرآن ـ وقد ذكرناه آنفاً ـ ما يشهد بذلك ، والفضل ما شهدت به الأعداء .

٢ ـ أن يكون المعجز فى الحقيقة هو الله وليس القرآن ، مع أن آيات التحدى تكاد تكون صريحة فى أن الإعجاز راجع إلى القرآن ذاته ، وعلى ذلك انعقد الإجماع .

---

(٢١) النساء : ٨٢

٣ ـ أن الإنس والجن ـ بصرفهم عن المعارضة بحيث أصبحوا عاجزين عنها ـ صاروا بمنزلة الموق ، وحينئذ لا يكون للتحدى معنى ولا فائدة .

ولقد نرى ـ أيضا ـ بعض العلماء يقصرون إعجاز القرآن على جانب واحد من جوانب الإعجاز المذكورة ، وهذا ـ إذا أخذ على ظاهره ـ خطأ بيِّن ، إذ أن كل ما ذكرناه من جوانب الإعجاز متحقق فى القرآن الكريم .

والظن بهؤلاء الذين قصروا إعجاز القرآن على جانب واحد من الجوانب التى ذكرناها : أنهم لم يقصدوا بذلك أن القرآن ليس فيه من جوانب الإعجاز إلا هذا الجانب فقط ، وإنما قصدهم : أن هذا الجانب الذى اقتصروا عليه يحقق الإعجاز للقرآن الكريم ، وهذا لا يمنع من وجود جوانب أخرى تحقق نفس الشىء ، وبانضمام بعضها إلى بعض يكون الإعجاز أتم وأقوى .

بقيت حقيقة يجب أن نعلمها ، وهى :

أن إعجاز القرآن من ناحية فصاحة كلماته ، وبراعة نظمه ، وجزالة أسلوبه، وبلاغته فى الدلالة على معانيه ، أمر متحقق فى كل سورة ، بل وفى كل آية تفيد فائدة تامة ، أما ما وراء ذلك من جوانب الإعجاز ، كاشتماله على أمور غيبية مستقبلة وقعت بعد كما أخبر عنها ، واشتماله على التشريعات الحكيمة ، وانطوائه على حقائق علمية لا يزال العلم الحديث يكشف عنها ، فهذا لا يتحقق فى كل آية ولا فى كل سورة ، وإنما يتحقق فى القرآن جملة ، ومن هنا حقق العلماء أن التحدى بأقصر سورة منه أو ما يعادلها أو بأى حديث مثله مهما قصر ، كان للعرب أولاً ، لأنهم أرباب اللسان ، وفرسان البيان ، فإن عجزوا هم عن معارضته فغيرهم أعجز ، والتحدى بهذا القدر من القرآن راجع إلى فصاحة كلماته ، وبراعة نظمه، وجزالة أسلوبه ، وبلاغته ، وهو ما عبرنا عنه بالجانب البيانى ، وهذا كله متحقق ـ كما قلنا ـ فى القدر المتحدى به أياً كان .

أما غير ذلك من جوانب الإعجاز التى تتحقق فى القرآن ككل ولا تتحقق فى كل أبعاضه ، فذلك يدركه كل إنسان عربيا كان أم غير عربى ، وهم جميعا متحدون بالقرآن جملة ومن كل هذه الجوانب بقوله سبحانه « **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** » (٢٢)

* * *

(٢٢) الاسراء : ٨٨

القــرآن و الــعــلم

● القرآن يشيد بفضل العلم ويرفع من أقدار العلماء :

فضل العلم قضية لا تحتاج إلى برهان يؤيدها ، وأقدار العلماء ومكانتهم العالية حقيقة لا ينكرها إلا من أنكر عقله وسفه نفسه !!

والقرآن الكريم ـ فى كثير من آياته ـ يشيد بفضل العلم ، ويرفع من أقدار العلماء ، وهو إذ يفعل ذلك لا يقصد إثبات حقيقة تحتاج إلى اثبات ، ولكنه يهدف إلى أن ينبه القلوب الغافلة والعقول اللاهية إلى قدسية العلم وسمو العلماء ، لعلها تتحرر من جهلها فتنخرط فى موكب العلم وتمضى فى ركاب العلماء لا تلوى على جهالة .

ولقد تكون أبلغ قارعة تقرع قلوب الغافلين وعقول اللاهين ، تلك الآيات البينات التى تقرر : أن العلم صفة من صفات الكمال التى يتصف بها الله سبحانه ويجب أن نقدسه عن الاتصاف بضدها :

« . . . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال »(١)

« إن الله عالم غيب السموات والأرض . . »(٢) .

« إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما »(٣) .

ولقد يكون أبلغ شاهد بعد هذه الآيات على فضل العلم ومكانة العلماء ، تلك الآيات القرآنية التى وردت فى حق الأنبياء عليهم السلام : تثبت لهم صفة العلم ، وتقرر ـ فى صراحة ووضوح ـ أنها من نعم الله التى مَنَّ بها عليهم :

يقول ـ سبحانه ـ فى أول ما نزل من القرآن على نبيه محمد ﷺ : « **إقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * إقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم** »(٤) .

ويقول ممتناً عليه : « **وعلّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما** »(٥) .

---

(١) الرعد : ٩
(٢) فاطر : ٣٨
(٣) طه : ٩٨
(٤) العلق : ١ ـ ٤
(٥) النساء : ١١٣

ويقول مخاطبا عيسى عليه السلام وممتناً عليه : « يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا ، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . . . »[٦] .

ويقول فى شأن داوود وسليمان عليهما السلام : « ولقد آتينا داوود وسليمان علماً . . »[٧] .

ويقول عن يوسف عليه السلام : « . . . ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً »[٨] .

ويقول فى شأن لوط عليه السلام : « ولوطاً آتيناه حكما وعلما . . . »[٩] . .

ويقول عن آدم عليه السلام : « وعلّم آدم الأسماء كلها . . »[١٠] .

ثم نجد القرآن الكريم ـ بعد ذلك ـ ينكر على من يسوى بين العلماء وغير العلماء فيقول فى أسلوب تهكمى ساخر : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ؟[*] .

ثم هو بعد يقرر هذه الحقيقة : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات . . »[١١] .

ولعل الله جمع بين الايمان والعلم هنا ، وجعلهما السبب فى علو المكانة والمنزلة عنده ، لأن الايمان لا يقوم ولا يقوى إلا على أساس العلم بالله ، والعلم بكل ما جاء منه وصدر عنه :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

نعم ، فى كل شىء له آية تدل على وجوده ، ووحدانيته ، وقدرته ، وربوبيته . . وكل صفات الكمال له ، ولكنها آيات لا يعقلها إلا العالمون . أما الجاهلون : ففى غفلة وإعراض عن هذا كله ، كما يقول سبحانه وتعالى عنهم :

« وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون »[١٢] .

---

(٦) المائدة : ١١٠
(٧) النمل : ١٥
(٨) يوسف : ٢٢
(٩) الأنبياء : ٧٤
(١٠) البقرة : ٣١
(*) الزمر : ٩
(١١) المجادلة : ١١
(١٢) يوسف : ١٠٥

● القرآن يدعو إلى العلم والمعرفة :

ولأن الله - سبحانه - يعلم أن من الناس ناساً قلوبهم غافلة عما فى الكون من حقائق ، وعقولهم لاهية عما تنطوى عليه هذه الحقائق من علوم ومعارف ، وأنهم بتعطيلهم لقلوبهم وعقولهم عن النظر فى ملكوت السموات والأرض ، واستنباط ما أودع الله فيهما من علوم وأسرار قد أهدروا إنسانيتهم ، وانحطوا بها إلى مستوى الحيوان الأعجم الذى لا عقل له ولا إدراك .

« لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون »[١٣] .

لأن الله يعلم أن من الناس ناساً هذا شأنهم ، ساق فى محكم كتابه آيات تهيب بأصحاب هذه القلوب اللاهية : أن يفتحوا قلوبهم وعقولهم على الكون وما فيه من آيات ، ليستخلصوا منها أسرارها وعلومها التى تأخذ بيدهم الى ما فيه خير الدنيا وسعادة الآخرة ، فقال لهم فى صرامة الآمر واستنكار اللائم :

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض . . »[١٤] .

« أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء . . »[١٥] .

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت »[١٦] .

« وهو الذى أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون »[١٧] .

« وفى الأرض آيات للموقنين * وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون »[١٨]

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جددٌ بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود * ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء . . »[١٩] .

---

(١٣) الأعراف : ١٧٩
(١٤) يونس : ١٠١
(١٥) الأعراف : ١٨٥
(١٦) الغاشية : ١٧ - ٢٠
(١٧) الأنعام : ٩٩
(١٨) الذاريات : ٢٠ ، ٢١
(١٩) فاطر : ٢٧ ، ٢٨

انظر الى هذه الآيات ونحوها مما ورد فى القرآن الكريم ، فسوف ترى أنها تدعو بإصرار وإلحاف إلى إعمال العقل والفكر فى آيات الله التى بثها فى الآفاق والأنفس ، لنأخذ منها ـ كما قدمنا ـ الدليل على وجود الله وقدرته ، ثم لنستخلص منها بعد ذلك ما تحويه وتشير اليه من علوم ومعارف تنفع البشرية وتسعدها فى حياتها الدنيا التى لا تقوم إلا على العلم والمعرفة .

وتأمل قول الله سبحانه : « **إنما يخشى الله من عباده العلماء** »تجد أنه يقرر فى صراحة ووضوح ـ أن للعلم دخلاً كبيرا فى معرفة عظمة الخالق عن طريق ما يهدى اليه من المعرفة بعظمة المخلوق الذى فيه من الأسرار ما يجعل العالم الباحث المنقب يؤمن عن مشاهدة ويقين بأن الله هو الخلاق ذو القوة المتين ، فيتصاغر علمه أمام علم الله ، وتتضاءل معرفته أمام معرفة الله ، ويتبدد كبرياؤه وغروره أمام عظمة رب الكون . . رب العالمين !! . .

ومن هنا كانت قلوب الجاهلين مغلقة لا تنفتح على حق ولا تتقبل حقيقة .

« **كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون** »[٢٠] .

وكانت قلوب العالمين مفتوحة على الحق تهتدى إليه وتؤمن به على طمأنينة ويقين :

« **وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلا العالمون** »[٢١] .

« **والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا** »[٢٢] .

« **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم** »[٢٣] .

« **وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم ، وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم** »[٢٤] .

والقرآن الكريم ـ حين يدعونا إلى العلم والمعرفة ـ لا يريد منا علماً فطيرا ، ولا يدعونا إلى معرفة فجة ، وانما يريد منا علما ناضجا يرتكز على قواعد ثابتة ، ومعرفة كاملة تنبى على مقدمات سليمة ، وأن يكون سبيل ذلك كله وسائل العلم والمعرفة التى أودعها الله فى الإنسان ، يقول عز من قائل : « **ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** »[٢٥] .

---

(٢٠) الروم : ٥٩
(٢١) العنكبوت : ٤٣
(٢٢) آل عمران : ٧
(٢٣) آل عمران : ١٨
(٢٤) الحج : ٥٤
(٢٥) الاسراء : ٣٦

وتأمل قوله : « **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** » بعد قوله : « **ولا تقف ما ليس لك به علم** » تجد أن الله سبحانه ـ ينبه الى أن أدوات المعرفة ووسائلها عند الإنسان هى : سمعه ، وبصره ، وفؤاده ، فمن تلقف الوقائع وتقبل الأخبار ، وانتهى إلى النتائج بدون أن يتحراها ويتأكد صدقها وصحتها بكل وسائل المعرفة التى أودع الله فيه ، فقد عطل ما ميزه الله به عن غيره من الحيوان ، وسوف يسأله الله يوم القيامة عما ضيع من نعمة الله التى فضله بها وأوجب عليه شكرها بقوله : « **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** »(٢٦) .

وتأمل ـ بعد ذلك ـ قوله ـ سبحانه ـ فى شأن من ضلوا طريق الحق وأعرضوا عن سواء السبيل « **إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس** »(٢٧) .

وقوله : « **وما لهم به من علم ، إن يتبعون إلا الظن،وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا** »(٢٨) .

تأمل هاتين الآيتين تجد أن الله ما نعى على هؤلاء الضالين ضلالهم إلا لأنهم اطرحوا العلم الموصل للحقيقة وساروا وراء ظنونهم وأهوائهم . والظن سراب والهوى مهلكة .

والقرآن الكريم يكره لنا كل الكراهية أن نكون مقلدين لا مبتكرين :

« **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون .** »(٢٩) .

ولا يرضى القرآن للباحث عن الحقيقة أياً كانت أن يبحث عنها فى جو من الفوضى التى تحول دون رؤيتها ، وتعوق عن الوصول اليها ، وإنما يرضى لنا ويطلب منا أن نوفر للبحث العلمى الموصل للمعرفة بها جواً هادئاً يبعث على التأمل والتدبر فى روية وحكمة ، يقول سبحانه آمراً نبيه ليوجه المعاندين المكابرين من أمته :

« **قل إنما أعظكم بواحدة،أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا** »(٣٠) .

يقول العلامة الزمخشرى فى تفسيره لهذه الآية :

---

(٢٦) النحل : ٧٨
(٢٧) النجم : ٢٣
(٢٨) النجم : ٢٨
(٢٩) البقرة : ١٧٠
(٣٠) سبأ : ٤٦

« والمعنى : إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم ، وهي : أن تقوموا لوجه الله خالصا متفرقين : اثنين اثنين ، وواحداً واحداً ، ثم تتفكروا في أمر محمد ﷺ وما جاء به ، أما الاثنان : فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه ، وينظران فيه نظر متصادقين متناصفين ، لا يميل بهما اتباع هوى ، ولا ينبض لهما عرق عصبية ، حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسنته . وكذلك الفرد : يفكر في نفسه بعدل ونصفة من غير أن يكابرها ، ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقر عنده من عادات العقلاء ومجارى أحوالهم . والذى أوجب تفرقهم مثنى وفرادى : أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ، ويعمى البصائر ، ويمنع من الرويّة ، ويخلط القول ، ومع ذلك يقل الانصاف ، ويكثر الاعتساف ، ويثور عجاج التعصب ، ولا يسمع إلا نصرة المذهب »[٣١] .

ويقرر القرآن الكريم - في وضوح تام - أن الهداة والدعاة والقادة من أصحاب الرسالات الدينية ، أو المذاهب السياسية أو غيرها ، لابد أن يكونوا على جانب كبير من العلم والمعرفة ، حتى تتأكد زعامتهم وتلزم طاعتهم ، ولا يرضى القرآن لإنسان يحترم إنسانيته أن ينقاد لمن لا علم عنده ، ولا أن يكون منه بمنزلة التابع من المتبوع ، فإن من حرم العلم حرم الخير كله ، ومن لم يتحل بالمعرفة لا يصلح أن يكون قدوة : يقول الله - سبحانه - على لسان إبراهيم عليه السلام مخاطباً أباه : « **يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً** »[٣٢] .

ويقول مخاطباً موسى وهارون عليهما السلام « **فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون** »[٣٣] .

ويقول لنبيه محمد ﷺ : « . . **ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون** »[٣٤] .

والقرآن الكريم لا يرى للعلم حداً يقف الإنسان عنده ، وانما يرى العلم بحراً لا ساحل له ، ويطلب منا أن نتزود منه ونزداد يوما بعد يوم دون أن نقف عند غاية ، ولهذا يقول الله - سبحانه - لرسوله محمد ﷺ وهو الأسوة والقدوة : « **وقل رب زدنى علما** »[٣٥] ولا يرى القرآن غضاضة في أن يتلقى الفاضل عمن دونه في الفضل ما لديه من علم يجهله ولو كان ذلك لا يتم إلا إذا كان منه بمنزلة التابع من المتبوع : يحل حيثما حل ويرتحل حيثما ارتحل ، وفي ذلك يقص

---

(٣١) تفسير الكشاف للزمخشرى جـ ٢ ص ٥٦٥ - ٥٦٦ - ط : الحلبى سنه ١٩٤٨
(٣٢) مريم : ٤٣ (٣٣) يونس : ٨٩ (٣٤) الجاثية : ١٨
(٣٥) طه : ١١٤

علينا القرآن الكريم قصة موسى مع الخضر عليهما السلام :

« فارتدا (يعنى موسى وفتاه) على آثارهما قصصا * فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما * قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا * قال إنك لن تستطيع معى صبرا * وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا * قال ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمراً * قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا . »[٣٦] . . الى آخر القصة[٣٧] .

وتأمل قوله سبحانه : « فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا » تجد أن القرآن الكريم لا يرضى بالتسرع فى طلب المعرفة ، ولا يعدم التريث فى تحمله وتلقيه ، لأن ذلك قد يفوت الكثير على طالب المعرفة ، ومن أجل هذا يقول سبحانه لنبيه محمد ﷺ :

« ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ، وقل رب زدنى علما »[٣٨] .

ويقول : « لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه »[٣٩] .

* * *

القرآن وما يحويه من العلوم :

تتبع العلامة المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى آيات القرآن الكريم فلاحظ : أن الآيات التى تتعلق بالعلوم الكونية سبعمائة وخمسون آية صريحة ، وأن الآيات التى تتعلق بالفقه الإسلامى لا تزيد عن مائة وخمسين آية صريحة . . وانطلق ـ من خلال هذه النتيجة ـ يبدى الأسف والعجب لكثرة ما ألفه علماء المسلمين فى الفقه ، وقلة ما ألفوه فى علوم الكائنات ، وكان

---

(٣٦) الكهف : ٦٤ ـ ٨٢

(٣٧) راجع ما كتبه المفسرون على هذه الآيات ، وراجع صحيح البخارى وشروحه هذا الحديث فى كتاب العلم .

قال القرطبى عند تفسيره لقوله تعالى « هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا » ما نصه : « فى هذه الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم وان تفاوتت المراتب ، ولا يظن أن فى تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل منه ؛ فقد يشذ عن الفاضل ما يعلمه المفضول ، والفضل لمن فضله الله ، فالخضر إن كان وليا فموسى أفضل منه لانه نبى ، والنبى أفضل من الولى ، وإن كان نبيا فموسى فضله بالرسالة » جـ ١١ ص ١٧ ط : دار الكتب المصرية .

(٣٨) طه : ١١٤

(٣٩) القيامة : ١٦ ـ ١٩

الأولى بهم أن يبرعوا أكثر وأكثر فى علوم الكائنات التى أعطاها الله حظاً أوفر من كتابه[٤٠] .

ولسنا ننكر على الشيخ طنطاوى ـ اذا تغاضينا عن منحاه فى التفسير العلمى للقرآن ـ ما أبداه من أسف وعجب ، فمبلغ علمنا وتعليلنا لزيادة الآيات المتعلقة بالعلوم الكونية على الآيات المتعلقة بالعلوم الفقهية تجعله على حق فيما ذهب إليه ، ذلك لأن العلوم الكونية لها تعلق قوى بالعقيدة الاسلامية ، فالنظر فيها طريق الى معرفة الله ، وكلما ازداد الإنسان علما بأسرار الكون ، كلما ازداد علماً بخالقه ومكونه ، هذا علاوة على ما يترتب على العلم بالكون وأسراره من تقدم ، ورقى ، وازدهار مادى ، لا يقل فى نظر الدين عن الجانب الدينى أو الروحى .

أما العلوم الفقهية أو علوم التشريع ، فهى ـ على أهميتها ـ تأتى فى المرتبة الثانية بعد العقيدة ، فالعقيدة أساس تقوم عليه الشريعة ، ولا يمكن أن يكون لها كيان بدونه .

والحقيقة التى لا يمارى فيها أحد : أن القرآن الكريم حوى من علوم الدين والدنيا ما فيه خير البشرية وسعادتها فى الدنيا والآخرة .

ولكن هذه الحقيقة تنازعها فريقان من المسلمين على مدى تاريخ القرآن الطويل : فريق غالى وبالغ فقال : إن القرآن الكريم حوى كل علوم الدنيا والدين ، ما كان منها وما يكون إلى يوم القيامة .

وفريق اعتدل والتزم أمراً وسطا فقال : إن القرآن حوى الكثير من علوم الدنيا والدين ، بعضها صريح ، وبعضها بتلميح ، ونبه إلى أن الكون ملىء بعلوم كثيرة حث على استنباطها من خلال كتاب الكون المفتوح أمام أبصارنا وبصائرنا لتفتح لنا الطريق الى الله ، ثم الى حياة زاهرة ، آمنة ، مستقرة . .

* * *

● **المتطرفون الذين حملوا القرآن كل علوم الدنيا والدين :**

ولقد كان من أبرز العلماء القدامى الذين تبنوا القول الأول وجهروا به وروجوا له فى الأوساط العلمية ، حجة الاسلام الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ ، فقد نقل فى كتابه « إحياء علوم الدين »[٤١] عن بعض العلماء : « أن القرآن

---

(٤٠) انظر الجواهر فى تفسير القرآن الكريم للشيخ طنطاوى جوهرى جـ ٢٥ ص ٥٣ ط : الحلبى سنة ١٣٤٠ ـ ١٣٥١هـ

(٤١) جـ٣ ص ١٣٥ ط : لجنة نشر الثقافة الاسلامية

يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتى علم ، إذ كل كلمة علم ، ثم يتضاعف ذلكّ أربعة أضعاف : إذ لكل كلمة ظهر ، وباطن ، وحد ، ومطلع » . . . . ثم يروى عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : « من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن » . . ثم يقول بعد ذلك كله : « وبالجملة فالعلوم كلها داخلة فى أفعال الله عز وجل وصفاته ، وفى القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته ، وهذه العلوم لا نهاية لها ، وفى القرآن إشارة الى مجامعها » . . ثم يزيد على ذلك فيقول : « بل كل ما أشكل فهمه على النظار ، واختلف فيه الخلائق فى النظريات والمعقولات ، فى القرآن اليه رموز ودلالات عليه ، يختص أهل الفهم بدركها » .

ثم يمضى الغزالى ـ فى كتابه « جواهر القرآن » الذى ألفه فيما يبدو بعد كتابه : الإحياء ـ فيقرر هذا الرأى الذى قرره فى الإحياء ويزيده بيانا وتفصيلا ، وذلك حيث يعقد الفصل الخامس منه لكيفية انشعاب سائر العلوم من القرآن ، فيذكر علم الطب والنجوم وهيئة العالم ، وهيئة بدن الحيوان ، وتشريح أعضائه ، وعلم السحر ، وعلم الطلسمات . . وغير ذلك ، ثم يقول : « ووراء ما عددته علوم أخرى يعلم تراجمها ولا يخلو العالم عمن يعرفها ، ولا حاجة إلى ذكرها ، بل أقول : ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التى لا يتمارى فيها : أن فى الإمكان والقوة أصنافا من العلوم بعد لم تخرج من الوجود وإن كان فى قوة الآدمى الوصول اليها ، وعلوم كانت قد خرجت من الوجود واندرست الآن . . وعلوم أخر ليس فى قوة البشر إدراكها والإحاطة بها . . ثم هذه العلوم ـ ما عددناها وما لم نعددها ـ ليست أوائلها خارجة من القرآن ، فإن جميعها متفرقة من بحر واحد من بحار معرفة الله ، وهو بحر الأفعال ، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له ، وأن البحر لو كان مداداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد . . . فمن أفعال الله تعالى وهو بحر الأفعال ـ مثلا ـ الشفاء والمرض ، كما قال تعالى حكاية عن إبراهيم « وإذا مرضت فهو يشفين »(٤٢) وهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله ، إذ لا معنى للطب إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته ، ومعرفة الشفاء وأسبابه . ومن أفعاله تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان ، وقد قال تعالى : « الشمس والقمر بحسبان »(٤٣) وقال : « وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب »(٤٤)

(٤٢) الشعراء : ٨٠
(٤٣) الرحمن : ٥
(٤٤) يونس : ٥

وقال : « . . . وخسف القمر * وجمع الشمس والقمر »[٤٥] وقال : « يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل »[٤٦] وقال : « والشمس تجرى لمستقر لها، ذلك تقدير العزيز العليم »[٤٧] ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان وخسوفهما ، وولوج الليل فى النهار ، وكيفية تكور أحدهما على الآخر إلا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض وهو علم برأسه . ولا يعرف كمال معنى قوله « يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم * الذى خلقك فسواك فعدلك * فى أي صورة ما شاء ركبك »[٤٨] إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهراً وباطنا ، وعددها ، وأنواعها ، وحكمتها ، ومنافعها ، وقد أشار فى القرآن - فى مواضع - إليها ، وهى من علوم الأولين والآخرين . وفى القرآن مجامع علم الأولين والآخرين . وكذلك لا يعرف معنى قوله : « سويته ونفخت فيه من روحى »[٤٩] ما لم يُعلم التسوية ، والنفخ . ، والروح ، ووراءها علوم غامضة يغفل عن طلبها أكثر الخلق،وربما لا يفهمونها إن سمعوها من العالم بها . ولو ذهبت أفصل ما تدل عليه آيات القرآن من تفاصيل الأفعال لطال ، ولا تمكن الإشارة إلا إلى مجامعها . . فتفكر فى القرآن والتمس غرائبه لتصادف فيه مجامع علم الأولين والآخرين[٥٠] .

ثم يأتى جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ ويقرر فى كتابه « الإتقان فى علوم القرآن » وفى كتابه « الإكليل فى استنباط التنزيل » ما قرره الغزالى من أن القرآن حوى كل علوم الأولين والآخرين ، ويسوق من الأدلة على ذلك قوله تعالى « ما فرّطنا فى الكتاب من شىء »[٥١] .

وقوله : « ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء »[٥٢] .

وقوله ﷺ فى شأن القرآن . . كما فى سنن الترمذى - « فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم » وقول ابن مسعود رضى الله عنه - كما أخرجه ابن أبى حاتم - « أنزل فى القرآن كل علم ، وبُين لنا فيه كل شىء ، لكن علمنا يقصر عما بُين لنا فى القرآن » [٥٣] .

---

(٤٥) القيامة : ٨ ، ٩ — (٤٦) الحج : ٦١ ، لقمان : ٢٩
(٤٧) يس : ٣٨ — (٤٨) الانفطار : ٦ - ٨
(٤٩) الحجر : ٢٩ وسورة ص : ٧٢
(٥٠) جواهر القرآن ص ٣٢ - ٣٤ ط : كردستان العلمية ١٣٢٩هـ
(٥١) الأنعام : ٣٨ — (٥٢) النحل : ٨٩
(٥٣) الاكليل ص ٢ ، والاتقان ص ١٢٦

ثم يذكر السيوطى عن أبى الفضل المرسى : أنه قال فى تفسيره : « جمع القرآن علوم الأولين والآخرين بحيث لم يحط بها علما حقيقة إلا المتكلم به ، ثم رسول الله ﷺ ـ خلا ما استأثر به سبحانه وتعالى ـ ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم مثل : الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، حتى قال : « لو ضاع لى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله تعالى . ثم ورث عنه التابعون بإحسان ، ثم تقاصرت الهمم ، وفترت العزائم ، وتضاءل أهل العلم ، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه . . »

ثم تكلم عن العلوم التى تفرعت عن القرآن فذكر : علم القراءات ، وعلم النحو ، وعلم التفسير ، وعلم الأصول ، وعلم الفقه ، وعلم القصص والتاريخ ، وعلم تأويل الآى ، وعلم الفرائض ، وعلم البلاغة . . ثم قال: « هذه الفنون أخذتها الملة الإسلامية منه ـ يعنى القرآن ـ وقد احتوى على علوم أخر من علوم الأوائل مثل : الطب ، والجدل ، والهيئة ، والهندسة ، والجبر ، والمقابلة ، والنجامة وغير ذلك من العلوم :

أما الطب : فمداره على حفظ نظام الصحة واستحكام القوة ، وذلك إنما يكون باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيات المتضادة ، وقد جمع ذلك فى آية واحدة وهى قوله تعالى : « **وكان بين ذلك قواما** »(٥٤) .

وعرّفنا فيه بما يفيد نظام الصحة بعد اختلاله ، وحدوث الشفاء للبدن بعد اعتلاله فى قوله تعالى : « **شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس** »(٥٥) . ثم زاد على طب الأجسام بطب القلوب : « **وشفاء لما فى الصدور** »(٥٦) .

وأما الهيئة : ففى تضاعيف سوره من الآيات التى ذكر فيها ملكوت السموات والأرض ، وما بث فى العالم العلوى والسفلى من المخلوقات .

وأما الهندسة : ففى قوله تعالى : « **انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب * لا ظليل ولا يغنى من اللهب** »(٥٧) فإن فيه قاعدة هندسية ، وهى أن الشكل المثلث لا ظل له .

وأما الجدل : فقد حوت آياته من البراهين والمقدمات والنتائج ، والقول بالموجب ، والمعارضة وغير ذلك شيئا كثيرا ، ومناظرة ابراهيم نمرود ، ومحاجته قومه أصل فى ذلك عظيم .

---

(٥٤) الفرقان : ٦٧
(٥٥) النحل : ٦٩
(٥٦) يونس : ٥٧
(٥٧) المرسلات : ٣٠ ، ٣١

وأما الجبر والمقابلة : فقد قيل : إن أوائل السور فيها ذكر مدد وأعوام وأيام التواريخ لأمم سالفة ، وأن فيها بقاء هذه الأمة ، وتاريخ مدة أيام الدنيا وما مضى وما بقى مضروب بعضها فى بعض .

وأما النجامة : ففى قوله تعالى « أو أثارة من علم »(٥٨) فقد فسره بذلك ابن عباس .

وفيه أصول الصنائع ، وأسماء الآلات التى تدعو الضرورة إليها : كالخياطة فى قوله « وطفقا يخصفان »(٥٩) . والحدادة « آتونى زبر الحديد »(٦٠) . والبناء فى آيات . والنجارة : « واصنع الفلك بأعيننا »(٦١) . والغزل : « نقضت غزلها »(٦٢) . والنسج : « كمثل العنكبوت اتخذت بيتا »(٦٣) . والفلاحة : « أفرأيتم ما تحرثون . . »(٦٤) الآيات ، والصيد : فى آيات . والغوص : « والشياطين كل بناء وغوّاص »(٦٥) « وتستخرجوا منه حلية »(٦٦) . والصياغة : « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً »(٦٧) . والزجاجة : « صرح ممرد من قوارير »(٦٨) « المصباح فى زجاجة »(٦٩) . والفخارة : « فأوقد لى يا هامان على الطين »(٧٠) . والملاحة : « أما السفينة . . »(٧١) الآية . والكتابة : « علَّم بالقلم »(٧٢) وفى آيات أخر . والخبز : « أحمل فوق رأسى خبزا »(٧٣) . والطبخ : « بعجل حنيذ »(٧٤) . والقصارة : « وثيابك فطهر »(٧٥) « قال الحواريون »(٧٦) ، وهم القصارون . والجزارة : « إلا ما ذكيتم »(٧٧) . والبيع والشراء : فى آيات . والصبغ : « صبغة الله »(٧٨) « جدد بيض وحمر »(٧٩) . والحجارة : « وتنحتون من الجبال بيوتا »(٨٠) . والكيالة والوزن فى آيات كثيرة . والرمى : « وما

---

(٥٨) الاحقاف : ٤
(٥٩) الأعراف : ٢٢ و طه : ١٢١
(٦٠) الكهف : ٩٦
(٦١) هود : ٣٧
(٦٢) النحل : ٩٢
(٦٣) العنكبوت : ٤١
(٦٤) الواقعة ٦٣ وما بعدها
(٦٥) سورة ص : ٣٧
(٦٦) النحل : ١٤
(٦٧) الاعراف : ١٤٨
(٦٨) النمل : ٤٤
(٦٩) النور : ٣٥
(٧٠) القصص : ٣٨
(٧١) الكهف : ٧٩
(٧٢) العلق : ٤
(٧٣) يوسف : ٣٦
(٧٤) هود : ٦٩
(٧٥) المدثر : ٤
(٧٦) آل عمران : ٥٢ والمائدة: ١١٢ والصف : ١٤
(٧٧) المائدة : ٣
(٧٨) البقرة : ١٣٨
(٧٩) فاطر : ٢٧
(٨٠) الشعراء : ١٤٩

رميت إذ رميت »[٨١] « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة »[٨٢] . وفيه من أسماء الآلات ، وضروب المأكولات ، والمشروبات والمنكوحات ، وجميع ما وقع ويقع فى الكائنات ما يحقق معنى قوله : « ما فرطنا فى الكتاب من شيء »[٨٣] قال السيوطى : انتهى كلام المرسى ملخصا مع زيادات[٨٤] .

.. وأخيراً عقب السيوطى على هذا بقوله : « وأنا أقول : قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء : أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هى أصل إلا وفى القرآن ما يدل عليها ، وفيه عجائب المخلوقات ، وملكوت السموات والأرض وما فى الأفق الأعلى ، وما تحت الثرى و. . الى غير ذلك مما يحتاج إلى مجلدات » (٨٥).

ثم يأتى من المحدثين من يقول بما قال به الغزالى والسيوطى وأبوالفضل المرسى ، مع مزيد من المبالغة والتكلف ، وعلى رأس هؤلاء المحدثين المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى فقد حَمّل كتاب الله كل علوم الدنيا والدين فى كتابه « الجواهر فى تفسير القرآن الكريم » .

ولو أننا تتبعنا سلسلة البحوث التفسيرية للقرآن الكريم فى هذا العصر الحديث وفى وقتنا الحاضر بالذات لوجدنا لأصحاب هذا المنزع العلمى فى فهم القرآن الكريم وتفسيره بحوثا كلها تعسف وتكلف ، ولوجدنا لهم فى ذلك مؤلفات كثيرة تحمِّل بعض النصوص القرآنية ما لا تحتمل من نظريات علمية مستحدثة .

ونستعرض بعض هذه الكتب فنرى فيها عجبا :

ففى كتاب ((الجواهر فى تفسير القرآن الكريم)) للمرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى عند تفسيره لقوله تعالى فى سورة البقرة : « وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة . . . »الآيات(٦٧)وما بعدها إلى آخر القصة . . . نراه يقول ما نصه :

« وأما علم تحضير الأرواح ، فان من هذه الآية ، استخراجه . إن هذه الآية تتلى والمسلمون يؤمنون بها حتى ظهر علم الأرواح بأمريكا أولاً ، ثم بأوروبا ثانياً . . ».

---

(٨١) الأنفال : ١٧ (٨٢) الأنفال : ٦٠

(٨٣) الأنعام : ٣٨

(٨٤) الاكليل ص ٢ ـ ٥ ، والاتقان جـ٢ . ص ١٢٦ ـ ١٢٨ .

(٨٥) الاتقان جـ٢ ص ١٢٩ ـ ١٣٠

ثم يذكر نبذة طويلة عن مبدأ ظهور هذا العلم ، وكيفية انتشاره ، ومدى فائدته ، ثم يقول : « ولما كانت السورة التى نحن بصددها قد جاء فيها حياة العزير بعد موته ، وكذلك حماره ، ومسألة الطير وأبراهيم الخليل ، ومسألة الذين خرجوا من ديارهم فراراً من الطاعون فماتوا ثم أحياهم . . وعلم الله أننا نعجز عن ذلك ، جعل قبل ذكر تلك الثلاثة فى السورة ما يرمز إلى استحضار الأرواح فى مسألة البقرة ، كأنه يقول : إذا قرأتم ما جاء عن بنى إسرائيل فى إحياء الموتى فى هذه السورة عند أواخرها فلا تيأسوا من ذلك ، فإنى قد بدأت بذكر استحضار الأرواح فاستحضروها بطرقها المعروفة ، واسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون . . »(*) .

وفى كتاب « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » للمرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبى نراه يقول فى ص(٢٣ ـ ٢٥) ما نصه :

« إن العلم كشف فى هذه القرون الأخيرة حقائق وطبائع كثيرة تعزى لكاشفيها ومخترعيها من علماء أوروبا وأمريكا ، والمدقق فى القرآن يجد أكثرها ورد التصريح أو التلميح به فى القرآن منذ ثلاثة عشر قرنا ، وما بقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء إلا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن ، شاهدة بأنه كلام رب لا يعلم الغيب سواه » .

ثم يذكر بعض المكتشفات العلمية التى يقول إن القرآن سبق إليها فيقول :

« . . . وكشفوا أن التغيير فى التركيب الكيماوى ، بل والمعنوى ناشئ عن تخالف نسبة المقادير ، والقرآن يقول : **« وكل شىء عنده بمقدار »**(٨٦) .

« وكشفوا طريقة إمساك الظل ، أى التصوير الشمسى ، والقرآن يقول : **« ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلا »**(٨٧) .

وفى كتاب ((الإسلام والطب الحديث)) للمرحوم الدكتور عبد العزيز اسماعيل ، نراه يعرض لقوله تعالى فى الآية (٢٢) من سورة البقرة **« وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقا لكم »** تحت عنوان ((الحياة تحت ضوء القرآن)) فيقول فى ص(١٣ ـ ١٥) ما نصه :

(*) الجواهر جـ١ ص ٧١ ـ ١٧٧ ط الحلبى ١٣٤٠ ـ ١٣٥١هـ

(٨٦) الرعد : ٨ (٨٧) الفرقان : ٤٥

« هذه الآية الكريمة معناها ـ والله أعلم ـ أن اللحوم والأسماك والألبان . إلخ . أفضل فى التغذية من البقول والقمح والذرة »

ثم يعقد مقارنة بين الأغذية الحيوانية والأغذية النباتية ، ويخرج بنتيجة تقرر هذه الأفضلية ثم يقول :

« إن هذه النتيجة التى لخصها القرآن الشريف لم تظهر حقيقة ثابتة إلا منذ سنوات قليلة » .

وها نحن ـ أخيرا ـ نقرأ لبعض الكاتبين ، ونسمع من بعض المحاضرين نماذج من هذا التفسير العلمى للقرآن الكريم وفى كثير منها تكلف ظاهر :

يقول بعضهم : إن الصعود إلى القمر والنزول على سطحه ـ وهو أحدث ما وصل اليه العلم فى عصرنا ـ قد ورد فى آيات من القرآن الكريم منها :

قوله تعالى : « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا،لا تنفذون إلا بسلطان »(٨٨) . يعنى سلطان العلم .

وقوله : « ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير »(٨٩) . وها هو ذا سائل يسأل المرحوم الاستاذ العقاد فيقول :

قوله تعالى : « فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم ، كذلك نجزى القوم المجرمين »(٩٠) . أليس من الممكن أن تعتبر هذه الآية الشريفة ـ يريد الآيتين ـ إشارة مبكرة من القرآن الكريم إلى القذيفة الذرية ، ودليلا قاطعا على سبق القرآن العلمى الذى أمكن اثباته فى مواضع كثيرة ؟ »(٩١) .

هذه بعض الأقوال والآراء لجماعة من الغلاة المتطرفين !! . .

* * *

● المعتدلون الذين لم يحملوا القرآن كل العلوم :

أما الفريق المعتدل الذى لم يشأ أن يُحَمِّل القرآن كل علوم الأولين والآخرين ، ولا أن يخضعه للنظريات العلمية ، فأبرز علمائه الأقدمين :

---

(٨٨) الرحمن : ٣٣ (٨٩) الشورى : ٢٩

(٩٠) الأحقاف : ٢٤ ، ٢٥

(٩١) الفلسفة القرآنية للعقاد ص ٢٠١ ط : دار الكتاب العربى

الفقيه الأصولى أبو إسحاق الشاطبى المتوفى سنة ٧٩٠ هـ فقد حمل لواء المعارضة ، وتوجه باللوم إلى من حمّلوا القرآن كل علوم الدنيا والدين ، وبين أنهم قد تجاوزوا الحد فى دعواهم على القرآن فقال :

« ما تقرر من أمية الشريعة وأنها جارية على مذاهب أهلها ـ وهم العرب ينبنى عليه قواعد : منها أن كثيراً من الناس تجاوزوا فى الدعوى على القرآن الحد فأضافوا اليه كل علم يذكر للمتقدمين والمتأخرين من علوم الطبيعيات ، والتعاليم: كالهندسة وغيرها من الرياضيات ، والمنطق ، وعلم الحروف ، وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها ، وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح »(٩٢) .

ثم يصحح الشاطبى رأيه هذا ، ويحتج له بما عرف عن السلف من نظرهم فى القرآن ، فيقول : « إن السلف الصالح ـ من الصحابة والتابعين ومن يليهم ـ كانوا أعرف بالقرآن وعلومه وما أودع فيه ، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم فى هذا المدعى سوى ما تقدم (٩٣) ، وما ثبت من أحكام التكاليف ، وأحكام الآخرة ، وما يلى ذلك ، ولو كان لهم فى ذلك خوض ونظر لبلغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة ، إلا أن ذلك لم يكن فدل على أنه غير موجود عندهم ، وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه تقرير لشىء مما زعموا(٩٤) .

ويمضى الشاطبى فينقض أدلة الغلاة التى استندوا إليها من نحو قوله تعالى : **« ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء »**(٩٥) وقوله : **« ما فرطنا فى الكتاب من شىء »**(٩٦) بحملها على ما يتعلق بحال التكليف والتعبد .

ثم ينهى الشاطبى كلامه بقوله :

« . . فليس من الجائز أن يضاف الى القرآن ما لا يقتضيه كما أنه لا يصح أن ينكر منه ما يقتضيه ، ويجب الاقتصار فى الاستعانة على فهمه على كل ما يضاف علمه الى العرب خاصة ، فبه يوصل الى علم ما أودع من الأحكام الشرعية ، فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه ، وتقوّل على الله ورسوله فيه ، والله أعلم وبه التوفيق »(٩٧)

(٩٢) الموافقات جـ٢ ص ٧٩ ط : التجارية . وهو يقصد بما تقدم ما قرره من أن الشريعة أمية وأهلها كذلك وتنزيلها كان على مقتضى حال المنزل عليهم ، وحالهم الاعتناء ببعض علوم ذكرها لا بكل العلوم .

(٩٣) يريد أن العرب لم يتكلموا إلا فى العلوم التى كانت لهم معرفة بها .

(٩٤) الموافقات جـ ٢ ص ٧٩ ـ ٨٠

(٩٥) النحل : ٨٩ (٩٦) الأنعام : ٣٨

(٩٧) الموافقات جـ ٢ ص ٨٠ ـ ٨٢

وفى العصر الحديث نجد من بين علمائنا الأفاضل من يتصدى للغلاة الذين حملوا القرآن كل علوم الأولين والآخرين ، وعلى رأس هؤلاء الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ محمد مصطفى المراغى ، فقد قال فى تقريظه لكتاب « الاسلام والطب الحديث » الذى تحدثنا عنه من قبل :

« لست أريد من هذا ـ يعنى ثناءه على الكتاب ومؤلفه ـ أن أقول : إن الكتاب الكريم اشتمل على جميع العلوم جملة وتفصيلا بالأسلوب التعليمى المعروف ، وإنما أريد أن أقول : إنه أتى بأصول ، وترك الباب مفتوحا لأهل الذكر من المشتغلين بالعلوم المختلفة ، ليبينوا للناس جزئياتها بقدر ما أوتوا منها فى الزمان الذى هم عائشون فيه »[٩٨] .

* * *

. . . وهكذا نجد لكل من فكرتى الغلو والاعتدال فى قضية القرآن وما حوى من العلوم مؤيدين ومعارضين من بين علمائنا القدامى والمحدثين .

والذى نرتضيه فى هذا الشأن هو ما يلى :

١ ـ أن القرآن حوى كثيرا من علوم الدنيا والدين تصريحا أو تلميحا .

٢ ـ أن اهتمام القرآن بعلوم الدنيا لا يقل عن اهتمامه بعلوم الدين ، لأن علوم الدنيا تؤيد الدين ، وتحميه ، وتفتح الطريق أمامه ، وإلا فما السر فى امتنان الله سبحانه ـ على داوود عليه السلام وقومه بقوله : « **وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ، فهل أنتم شاكرون** » ؟[٩٩] .

وقوله : « **ولقد آتينا داوود منا فضلا ، ياجبال أوّبى معه والطير ، وألنا له الحديد * أن اعمل سابغات وقدّر فى السرد ، واعملوا صالحا ، إنى بما تعملون بصير** »[١٠٠] .

وعلى أى أساس غير علوم الدنيا يمكن أن نستجيب لأمر الله سبحانه « **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة . .** » ؟[١٠١] .

---

(٩٨) الاسلام والطب الحديث ص(د). وانظر ما كتبه المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا فى تفسير المنار جـ١ ص ٧ . وما كتبه المرحوم الاستاذ الاكبر الشيخ محمود شلتوت فى العدد ٤٠٧ ـ ٤٠٨ من السنه التاسعة لمجلة الرسالة (ابريل سنة ١٩٤١) وما كتبه المرحوم الاستاذ الشيخ أمين الخولى فى كتابه (التفسير : معالم حياته ، منهجه اليوم)عند الكلام عن التفسير العلمى

(٩٩) الأنبياء : ٨٠ — (١٠٠) سبأ : ١٠ ، ١١

(١٠١) الأنفال : ٦٠

٣ ـ أن العلم لا يقف عند غاية ، وأن الكون ملىء بأسرار لا تحصى : ومهما كشف الإنسان من حجب عن أسرار هذا الكون ، فلن يستوعب كل مكنونه من علوم ومعارفه ويقرر القرآن الكريم هذه الحقيقة فى نحو قوله عز وجل : **« وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »**(١٠٢) .

وقوله : **« سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون »**(١٠٣) .

وقوله : **« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »**(١٠٤) .

ولن يحيط بكل شىء علما إلا الله خالق الكون ومبدعه :

« ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ؟(١٠٥) .

« وهو بكل خلق عليم »(١٠٦) .

« وكنا بكل شىء عالمين »(١٠٧) .

« وكان الله بكل شىء عليما »(١٠٨) .

٤ ـ أن الله ـ سبحانه ـ لا يرضى للإنسان الذى استخلفه فى الأرض واستعمره فيها أن يقنع بالقليل من العلم ، أو ينام عن استجلاء ما احتواه الكون من أسرار ، بل طلب إليه ـ كما قدمنا ـ فى اصرار وإلحاف أن يتعرف على ما فى الكون من كنوز العلم والمعرفة ، بالنظر والتأمل ما وسعه ذلك **« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض »**(١٠٩) وبالرجوع الى العلماء المختصين فيما وقفت قدرته دونه **« فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون »**(١١٠) .

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدث عن الظواهر الكونية ، ثم تختم هذه الآيات بنحو قوله تعالى : **« قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون »**(١١١) .

« إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »(١١٢) .

« إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون »(١١٣) .

« إن فى ذلك لآيات للعالمين »(١١٤) .

---

(١٠٢) الاسراء : ٨٥
(١٠٣) يس : ٣٦
(١٠٤) فصلت : ٥٣
(١٠٥) الملك : ١٤
(١٠٦) يس : ٧٩
(١٠٧) الأنبياء : ٨١
(١٠٨) الأحزاب : ٤٠
(١٠٩) يونس : ١٠١
(١١٠) الأنبياء : ٧
(١١١) الأنعام : ٩٨
(١١٢) الرعد : ٣
(١١٣) النحل : ٦٧
(١١٤) الروم : ٢٢

ولسنا نفهم من هذه العبارات وأمثالها إلا أن الله يهيب بأولى الألباب والعقول أن يفتحوا أبصارهم وبصائرهم على آياته التى بثها فى الأنفس والآفاق ليتكشف لهم بعض ما حواه الكون من علوم وأسرار تشهد أولاً على قدرة الله وعلو سلطانه ثم لتكون لهم هذه الثروة العلمية ـ فيما بعد ـ مصدر قوة وعزة ومنعة فى حياة سلاحها العلم والمعرفة .

٥ ـ لا شك أن القرآن الكريم يتحدث الى عقول الناس جميعاً من لدن نزوله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو يساير حياتهم فى كل ما يمرون به من مراحل الزمن ، وهذا كله بحكم كونه كتاب الشريعة العامة الشاملة ، وقانون الدين الذى جعله الله خاتم شرائع السموات إلى أهل الأرض »(١١٥) .

ولا شك أن فى القرآن الكريم نصوصا يفهمها العربى وقت نزول القرآن على نحو ما وصل اليه العلم فى زمانه ، ولا يكاد يخرج فهمه عن حدود دلالة النص ، ويفهمها العربى فى العصر الحديث على ضوء ما وصل اليه العلم فى زمانه فهماً آخر لا يخرج هو أيضا عن دلالة النص ومثال ذلك :

قوله تعالى فى الآية (٣٠) من سورة الأنبياء « **أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما** » فقد فسرها عبد الله بن عباس على ضوء ما وصل اليه العلم فى زمانه تفسيراً تحتمله الآية فقال :

« كانت السموات رتقا لا تمطر ، وكانت الأرض رتقا لا تنبت فلما خلق للأرض أهلا ، فتق هذه بالمطر ، وفتق هذه بالنبات »(١١٦) .

وفسرها بعض علماء العصر الحديث على ضوء ما انتهى اليه العلم فى زمانه فقال :

« قرر الكتاب الكريم أن الأرض كانت جزءاً من السموات وانفصلت عنها . . . وهذا الذى قرره الكتاب الكريم هو الذى دل عليه العلم وقد قال العلماء : إن حادثا كونيا جذب قطعة من الشمس وفصلها عنها ، وأن هذه القطعة بعد أن مرت عليها أطوار تكسرت وصارت قطعا ، كل قطعة منها صارت سياراً من السيارات ، وهذه السيارات طافت حول الشمس وبقيت فى قبضة جذبتها ، والأرض واحدة من هذه السيارات ، فهى بنت الشمس ،

---

(١١٥) التفسير والمفسرون جـ ٢ ص ١٥٨

(١١٦) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١٧٧ ط : الحلبى

والشمس هى المركز لكل هذه السيارات . . »[117] .

ولا نكاد نجد تعارضا بين الفهمين ، والآية ـ على فرض صحة الرأى الثانى ـ تتسع لهما وذلك من وجوه الاعجاز القرآنى .

غير أن بعض الذين فتنوا بنظرية أن القرآن حوى كل ما كان وما يكون من العلوم ، بالغوا فحملوا بعض النصوص القرآنية حملاً فيه تعسف ظاهر وتكلف غير مقبول على بعض العلوم ومصطلحاتها التى جدت ولم يكن للعرب عهد بها من قبل ، بل وعلى بعض النظريات العلمية التى لم تستقر بعد ، ومن لم تستخفهم هذه النزوة العلمية قرروا : أن هذا تأول للقرآن على غير تأويله .. يقول الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى ـ رحمه الله ـ فى تقريظه لكتاب ((الإسلام والطب الحديث)) :

« يجب ألا نجر الآية الى العلوم كى نفسرها بها ، ولا العلوم إلى الآية ، ولكن إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها »[118] .

ويقول فى أحد دروسه التى كان يلقيها فى تفسير القرآن الكريم :

« وجد الخلاف بين المسلمين فى العقائد والأحكام الفقهية ، ووجد عندهم مرض آخر هو : الغرور بالفلفة ، وتأويل القرآن ليرجع إليها ، وتأويله وفقا لبعض النظريات العلمية التى لم يقر قرارها وذلك خطر عظيم على الكتاب ، فإن للفلاسفة أوهاما لا تزيد عن هذيان المصاب بالحمى . والنظريات التى لم تستقر بعد لا يصح أن يُرَدَّ إليها كتاب الله »[119] .

ويقول الاستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله تعالى :

« كل ما يجب على المسلم أن يؤمن به : أن كتابه الإلهى يأمر بالبحث والتفكير ، ولا ينهاه عنه ، ولا يصده عن النظر والتأمل فى مباحث الوجود وأسرار الطبيعة وخفايا المجهول كيفما كان ، ولكنه لا يأمره بالتماس التوفيق بين نصوصه وبين نظريات العلم كلما ظهرت منها نظرية بعد نظرية يحسبها العلماء ثابتة مقررة وهى عرضة بعد قليل للنقض والتبديل »[120] .

* * *

(117) تفسير سورة لقمان للاستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى ص ١٣ ولبعض المفسرين الأقدمين أقوال قريبة من هذا المعنى فراجع كتب التفسير لهذه الآية .

(118) الاسلام والطب الحديث ص ٣

(119) الدروس الدينية للشيخ محمد مصطفى المراغى لسنة ١٣٥٦هـ ص ٤٢

(120) الفلسفة القرآنية للعقاد ص ٢٠٦ ط : دار الكتاب العربى ببيروت .

ويقول فى موضع آخر :

« فمن الحق أن نعلم أن كتابنا يأمرنا بالبحث والنظر والتعلم والإحاطة بكل معلوم يصدر عن العقول ، ولكن ليس من الحق أن نزعم : أن كل ما تستنبطه العقول مطابق للكتاب ، مندرج فى ألفاظه ومعانيه ، فإن كثيرا من آراء العلماء التى يستنبطونها أول الأمر لا يعدو أن يحسب من النظريات التى يصح منها ما يصح ، ويبطل منها ما يبطل ، ولا تستغنى على الدوام عن التعديل واعادة النظر من حين الى حين »(١٢١)

ويبدو لنا أن هؤلاء الغلاة حمّلوا القرآن الكريم ما لا يحتمل من علوم ونظريات حتى جعلوه مصدراً لجوامع الطب ، وضوابط الفلك ، ونظريات الهندسة ، وقوانين الكيمياء ، ومعادلات الرياضة . . . إلخ،حسبوا ، أن ذلك يخدم القرآن الكريم ، ويبرز جانبا هاما من جوانب اعجازه ، وهذا وهم منهم ، فإن مثل هذا التكلف لا يبرز الاعجاز ، وإنما يذهب بالإعجاز !! . .

وليعلم هؤلاء الغلاة أن القرآن الكريم غنى عن أن يعتز بمثل هذا التكلف الذى يوشك أن يخرج به عن هدفه الإنسانى الاجتماعى فى اصلاح الحياة ، ورياضة النفس ، والرجوع بها الى الله !! . .

وليعلموا ـ أيضا ـ أن من الخير لهم ولكتابهم أن لا يسلكوا هذا المسلك فى فهم القرآن وتفسيره ، رغبة منهم فى اظهار اعجازه ، وصلاحيته للتمشى مع التطور العلمى فى مراحله الزمنية المتتابعة ، وحسبهم وحسب القرآن إعجازا أن لا يكون فيه نص يصادم حقيقة علمية ثابتة ، وأنه يمكن التوفيق بينه وبين ما جدَّ ويجد من نظريات وقوانين تقوم على أساس من الحق وتستند إلى أصل صحيح(١٢٢) .

* * *

---

(١٢١) التفكير فريضة اسلامية للعقاد ص ٧٨ ط : دار الكتاب العربى ببيروت .

(١٢٢) انظر كتابنا التفسير والمفسرون جـ ٢ ص ١٥٧ ـ ١٦٠

ترجمة القرآن الكريم

● **معنى الترجمه وأنواعها :**

كلمة الترجمة تطلق فى اللغة على معنيين :

الأول : نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى بدون بيان لمعنى الأصل المترجم ، وذلك كوضع رديف مكان رديف من لغة واحدة .

الثانى : تفسير الكلام وبيان معناه بلغة أخرى .

قال فى تاج العروس : « ... والترجمان : المفسر للسان . وقد ترجمه وترجم عنه اذا فسر كلامه بلسان آخر . قال الجوهرى : وقيل : نقله من لغة إلى لغة أخرى » .

وعلى هذا فالترجمة نوعان :

١ ـ ترجمة حرفية .

٢ ـ وترجمة معنوية أو تفسيرية .

فالترجمة الحرفية : هى نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى مع مراعاة الموافقة فى النظم والترتيب ، والمحافظة على جميع معانى الأصل المترجم من غير شرح ولا بيان .

والترجمة المعنوية أو التفسيرية : هى شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى بدون مراعاةلنظم الأصل وترتيبه ، وبدون المحافظة على جميع معانيه المرادة منه ، إما لعدم اتساع اللغة المترجم إليها لكل معانى الأصل المترجم ، وإما لدقة بعض المعانى وعدم إدراك المترجم لها .

وواضح مما تقدم : أن الترجمة الحرفية تقوم مقام الأصل وتسد مسده ، لأنها مطابقة له تمام المطابقة ولا اختلاف بينهما إلا فى اللغة فقط . أما الترجمة المعنوية فلا تقوم مقام الأصل ولا تسد مسده لأنها لا تطابقه وانما تطابق المعنى الذى فهمه المترجم وفسر به عبارة الأصل .

***

● **ترجمة القرآن بين المجيزين والمانعين وحقيقة الخلاف :**

ولقد وقف علماء المسلمين ـ قدامى ومحدثون ـ من ترجمة القرآن الكريم

موقفين متعارضين : منهم من يقول بعدم جوازها ، ومنهم من يقول بجوازها ، وكل من الفريقين يبنى رأيه على أدلة يراها سليمة من وجهة نظره .

ولا نريد أن نطيل بذكر أدلة الفريقين ، لأن الخلاف بينهما صورى لا حقيقة له : فكل منهما ينظر من زاوية معينة غير التى ينظر منها الآخر : فالقائلون بعدم جواز ترجمة القرآن الكريم ينظرون إلى الترجمة الحرفية فيرون أنها غير ممكنة ولا جائزة . والقائلون بالجواز ينظرون إلى الترجمة المعنوية أو التفسيرية فيرونها ممكنة وجائزة . ولو كان ملحظ الفريقين واحداً ما وقع هذا الخلاف الذى احتدم بين العلماء من زمن قريب : وكان له فيما بينهم مساجلات ومناظرات شهدتها منابر الجمعيات والمنتديات ، وسجلتها أمهات الصحف والمجلات والنشرات، ونال بعضهم من بعض حتى تراموا بالزندقة والإلحاد !! . .

لو أن الفريقين حرروا موضع النزاع لاتفقوا على قول واحد ، وهو : «أن الترجمة الحرفية للقرآن غير ممكنة ولا جائزة ، أما الترجمة المعنوية فممكنة وجائزة ، بل وقد تكون واجبة » .

هذه حقيقة لا أظن عاقلا ينازع فيها ، أو مسلماً يتحرج من القول بها ، ونوضح ذلك فنقول :

أما ان الترجمة الحرفية للقرآن الكريم غير ممكنه ولا جائزة : فذلك لأن الترجمة الحرفية معناها أن يترجم نظم القرآن بلغة أخرى تحاكيه حذواً بحذو بحيث تحل مفردات الترجمة محل مفرداته ، وأسلوبها محل أسلوبه ، حتى تتحمل الترجمة ما تحمله نظم الأصل من المعانى المقيدة بكيفياتها البلاغية ، وأحكامها التشريعية ، وهذا غير ممكن بالنسبة لكتاب الله العزيز ، وذلك لأن القرآن الكريم - كما سبق أن بينا - نزل لغرضين أساسيين :

أولهما : كونه آية دالة على صدق النبى محمد ﷺ فيما يبلغه عن ربه ، وذلك بكونه معجزاً للبشر ، لا يقدرون على الإتيان بسورة من مثله ولو اجتمع الإنس والجن على ذلك .

وثانيهما : هداية الناس لما فيه صلاحهم فى دنياهم وأخراهم .

أما الغرض الأول وهو كونه آية على صدق النبى محمد ﷺ فلا يمكن تأديته بالترجمة اتفاقاً ، فإن القرآن - وان كان الإعجاز به فى جملته لعدة معان كالإخبار بالغيب واستيفاء تشريع لا يعتريه خلل ، وغير ذلك مما عدّ من وجوه إعجازه - إنما يدور الإعجاز السارى فى كل آية منه على ما فيه من خواص بلاغية جاءت لمقتضيات معينة ، وهذه لا يمكن نقلها إلى اللغات الأخرى اتفاقاً ، فإن

اللغات الراقية وإن كان لها بلاغة ولكن لكل لغة خواصها التى لا يمكن إن يشاركها فيها غيرها من اللغات ، وإذن فلو ترجم القرآن ترجمة حرفية ـ وهذا محال ـ لضاعت خواص القرآن البلاغية[1] ، ولنزل القرآن من مرتبته المعجزة إلى مرتبة تدخل تحت طوق البشر ، ولفات هذا المقصد العظيم الذى نزل القرآن من أجله على محمد ﷺ .

وأما الغرض الثانى ، وهو كونه هداية للناس إلى ما فيه سعادتهم فى الدارين ، فذلك باستنباط الأحكام والإرشادات منه ، وهذا يرجع بعضه إلى المعانى الأصلية التى يشترك فى تفهمها وأدائها كل الناس وتقوى عليها جميع اللغات ، وهذا النوع من المعانى يمكن ترجمته واستفادة الأحكام منه ، وبعض آخر من الأحكام والإرشادات يستفاد من المعانى الثانوية ، ونجد هذا كثيراً فى استنباطات الأئمة المجتهدين[2] ، وهذه المعانى الثانوية لازمة للقرآن الكريم وبدونها لا يكون قرآنا . والترجمة الحرفية إن أمكن فيها المحافظة على المعانى الأولية فغير ممكن أن يحافظ فيها على المعانى الثانوية ضرورة أنها لازمة للغة القرآن دون غيرها من سائر اللغات .

ومما تقدم يعلم : أن الترجمة الحرفية لا يمكن أن تقوم مقام الأصل فى تحصيل كل ما يقصد منه ، لما يترتب عليها من ضباع الغرض الأول برمته ، وفوات شطر من الغرض الثانى .

وأما أن الترجمة المعنوية ممكنة وجائزة : فذلك لأن الترجمة المعنوية ـ كما قلنا آنفا ـ عبارة عن شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى ، بدون محافظة على نظم الأصل وترتيبه وبدون المحافظة على جميع معانيه المرادة منه ، وذلك بأن يفهم

---

(١) فمثلا لو أراد إنسان أن يترجم قوله تعالى فى الآية(٢٩) من سورة الاسراء « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط » ترجمة حرفية لأتى بكلام يدل على النهى عن ربط اليد فى العنق ، وعن مدها غاية المد ، ومثل هذا التعبير فى اللغة المترجم اليها ربما كان لا يؤدى المعنى الذى قصده القرآن ، بل قد يستنكر صاحب هذه اللغة هذا الوضع الذى ينهى عنه القرآن ، ويقول فى نفسه : إنه لا يوجد عاقل يفعل بنفسه هذا الفعل الذى نهى عنه القرآن ، ولأنه مثير للضحك على فاعله والسخرية منه ، ولا يدور بخلد صاحب هذه اللغة المعنى الذى أراده القرآن وقصده من وراء هذا التشبيه البليغ . أما إذا أراد أن يترجم هذه الحملة ترجمة معنوية فإنه يأتى بالنهى عن التبذير والتقتير مصورين بصورة شنيعة ينفر منها الإنسان حسبما يناسب أسلوب تلك اللغة المترجم إليها ، ويناسب الف من يتكلم بها . ومن هنا يتبين أن الغرض الذى أراده الله من هذه الآية يكون مفهوما بكل سهولة ووضوح فى الترجمة المعنوية دون الترجمة الحرفية .

(٢) من هذا القبيل دلالة قوله تعالى فى الآية(٢٣٣) من سورة البقرة « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن » على أن الولد ينسب الى أبيه ولا ينسب الى أمه فهذا معنى ثانوى يستنبط من دلالة اللام فى لفظ (له) أما المعنى الأصلى الذى سيقت له الآية فهو وجوب الانفاق على الوالدات .

المترجم المعنى المراد من الأصل على قدر ما يتيسر له ثم يُعبِّر عنه بلغة أخرى على قدر ما تتسع له هذه اللغة .

وعلى هذا فترجمة القرآن ترجمة معنوية لا تعدو أن تكون تفسيراً له بلغة غير لغته التى نزل بها ، وحيث اتفقت كلمة المسلمين وانعقد إجماعهم على جواز تفسير القرآن لمن كان من أهل التفسير بما يدخل تحت طاقته البشرية بدون إحاطة بجميع مراد الله تعالى ، فإنا لا نشك فى أن الترجمة المعنوية للقرآن داخلة تحت هذا الإجماع أيضاً ، لأن عبارة الترجمة المعنوية محاذية لعبارة التفسير لا لعبارة الأصل القرآنى ، فإذا كان التفسير مشتملاً على معنى الأصل وشرحه : بحل ألفاظه فيما يحتاج تفهمه الى حل وبيان مراده فيما يحتاج الى بيان ، وتفصيل معناه فيما يحتاج الى تفصيل ، وتوجيه مسائله فيما يحتاج الى توجيه ، وتقرير دلائله فيما يحتاج الى تقرير . . . ونحو ذلك من كل ما له تعلق بتفهم القرآن وتدبره ، كانت الترجمة المعنوية أيضا مشتملة على هذا كله لأنها ترجمة للتفسير لا للقرآن .

وقصارى القول : أن فى كل من التفسير والترجمة المعنوية بيان ناحية أو أكثر من نواحى القرآن التى لا يحيط بها إلا من أنزله بلسان عربى مبين ، وليس فى واحد منهما إبدال لفظ مكان لفظ القرآن ، ولا إحلال نظم محل نظمه بل لفظ القرآن ونظمه باقيان على حالهما صورة ومعنى من غير خلل ولا نقصان .

واذ قد انتهينا الى أن ترجمة القرآن الكريم ترجمة حرفية غير ممكنة ولا جائزة ، فمن الحق علينا أن نقرر بعد ذلك أن ترجمات القرآن التى زعم أصحابها أنها ترجمات حرفية له ، كلها ترجمات باطلة لا تقوم مقام القرآن . ولا تعبر عنه تعبيراً صادقا ، ولا يجوز لمسلم أن يطمئن اليها أو يعتمد عليها فى استخلاص عقيدة أو استنباط حكم .

* * *

● وجوب الترجمة المعنوية إذا تعينت طريقا لتبليغ الدعوة :

واذ قد انتهينا ـ أيضا ـ الى أن ترجمة القرآن ترجمة معنوية أمر ممكن وجائز ، فمن الحق علينا ـ أيضا ـ أن نقرر أن الترجمة المعنوية لا تقف عند حد الجواز فقط ، بل تتعداه ـ أحيانا ـ إلى مرتبة الوجوب ، فإذا كان لا سبيل الى تبليغ دعوة القرآن لمن لا يعرفون اللسان العربى إلا عن طريق الترجمة المعنوية ، فالواجب على المسلمين ـ وجوبا كفائيا ـ أن يقوموا بهذه الترجمة ، وأن يجعلوها

فى متناول كل إنسان بلغته التى يتخاطب بها ، حتى تبرأ ذمتهم من واجب الدعوة الى الله وإلى كتابه .

ومن زعم أن ترجمة القرآن على هذا النحو قد تؤدى إلى بلبله وتشكاك فى القرآن ضرورة اختلاف الترجمات وعدم اتفاقها فذلك زعم غير مقبول ، لأننا لم نقل إن الترجمة المعنوية حلت محل القرآن وأخذت كل خصائصه ومميزاته ، وانما قلنا : إنها ترجمة للتفسير الذى يخضع لأصول التفسير وقواعده ، والاختلاف فى التفسير لا يعيب القرآن لأنه اختلاف فى أفهام البشر وليس اختلافا فى كلام الله عز وجل .

ومن زعم أن ترجمة القرآن على هذا النحو تعوق غير العرب عن تعلم العربية التى هى المدخل الأساسى لتفهم الاسلام من مصادره الأصلية ، فذلك زعم لا نلتفت اليه ، لأن تعلم العربية بالنسبة لمن لا يعرفونها ـ وإن كان أمراً ينبغى أن نحرص عليه ـ ليس فرضا ، أما الإعلام بالدعوة الإسلامية وما تضمنه كتابها بأى لسان فهو الفرض الذى أوجب الله علينا معشر المسلمين ، ولا ينبغى لنا أن نعطل أمراً واجبا مخافة أن يعوق عن أمر لا يرى الاسلام وجوبه .

ومن زعم أن الترجمة على هذا النحو الذى أجزناه وأوجبناه أحيانا ليست جائزة على أى حال ، استنادا إلى ما فعله رسول الله ﷺ من أنه أرسل كتبا إلى هرقل وغيره ضمنها بعض آيات من القرآن الكريم كتبها باللسان العربى كما أنزلت ، كما فى كتابه الى هرقل : « من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم : سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين،فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين[٣] ، و « **يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** »[٤] .

من زعم أن الترجمة المعنوية غير جائزة استناداً إلى كتابة الرسول ﷺ النص القرآنى كما هو منزل من عند الله ، فهو غافل عما فيه من إشاوة قاطعة على الجواز ، ذلك لأن الرسول ﷺ يعلم أن هرقل لا يعرف اللسان العربى ،

---

(٣) الأريسيون جمع أريسى وفى رواية اليريسيون . والمراد بهم من تحت امرته من العامة والفلاحين .
(٤) الآية ٦٤ من سورة آل عمران ونصها : « قل ياأهل الكتاب . . » الخ . وحديث كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هرقل مروى فى كتاب الايمان من صحيح البخارى .

ويعلم تبعاً أن الكتاب بما فيه من قرآن لابد أن يترجم له باللغة التى يعرفها وهى اللغة الرومية ، فكان ذلك بمثابة إذن صريح منه عليه الصلاة والسلام بترجمة الآية الى غير العربية ، وقد جاء فى صحيح البخارى أن هرقل دعا ترجمانه ، ثم دعا بكتاب النبى ﷺ فقرأه .. إلى آخره .

* * *

● **شروط الترجمة المعنوية :**

سبق أن قلنا إن تفسير القرآن الكريم من العلوم التى فُرِض على الأمة تعلمها . والترجمة المعنوية تفسير للقرآن بغير لغته ، فكانت - أيضا - من الأمور التى فُرِضت على الأمة ، بل هى آكد ، لما يترتب عليها من المصالح المهمة : كتبليغ معانى القرآن وإيصال هدايته إلى المسلمين وغير المسلمين ممن لا يتكلمون بالعربية ولا يعرفون لغة العرب ، وأيضا حماية العقيدة الاسلامية من كيد الملحدين ، والدفاع عن القرآن الكريم بالكشف عن أضاليل المبشرين الذين عمدوا إلى ترجمة القرآن ترجمة حشوها بعقائد زائفة . وتعاليم فاسدة ، ليظهروا القرآن لمن لا يعرف لغته فى صورة تنفر منه وتصد عنه ، وكثيراً ما ضجت الأصوات بالشكوى من هذه الترجمات الفاسدة ، لهذا نرى أن نذكر الشروط التى يجب أن تتوفر وتراعى فى الترجمة المعنوية حتى تكون ترجمة صحيحة مقبولة . واليك هذه الشروط :

أولا : أن تكون الترجمة على شريطة التفسير ، لا يعوّل عليها إلا اذا كانت مستمدة من الأحاديث النبوية ، وعلوم اللغة العربية ، والأصول المقررة فى الشريعة الاسلامية ، فلا بد للمترجم من اعتماده فى استحضار معنى الأصل على تفسير مستمد من ذلك ، أما إذا استقل برأيه فى استحضار معنى القرآن أو اعتمد على تفسير ليس مستمداً من تلك الأصول فلا تجوز ترجمته ولا يعتد بها ، كما لا يعتد بالتفسير إذا لم يكن مستمداً من تلك المناهل معتمداً على هذه الأصول .

ثانيا : أن يكون المترجم بعيداً عن الميل الى عقيدة زائفة تخالف ما جاء به القرآن . وهذا شرط فى المفسر أيضا ، لأنه لو مال واحد منهما الى عقيدة فاسدة لتسلطت على تفكيره ، فاذا بالمفسر أو المترجم يفسر أو يترجم وفقاً لهواه وتبعا لميوله فيصبح بذلك بمعزل عن القرآن وهداه ، ومتقولاً على الله بالهوى والغرض .

ثالثا : أن يكون المترجم عالماً باللغتين : المترجم منها ، والمترجم إليها ،

خبيراً بأسرارهما ، يعلم جهة الوضع والأسلوب والدلالة لكل منهما . وكثيراً ما وضعت ترجمات للقرآن ممن لا يحيطون علما بكلتا اللغتين أو باحداهما فجاءت مليئة بالأباطيل والأكاذيب على الله وكتابه .

* * *

● **أمثل الطرق لترجمة القرآن الكريم :**

وأمثل الطرق لترجمة القرآن الكريم أن يراعى فى الترجمة ما يلى :

١ ـ أن تتوفر فيها الشروط السابقة .

٢ ـ أن ينص فى مقدمتها على أنها ليست ترجمة حرفية وإنما هى ترجمة للمعانى التى فهمها المترجم أو غيره من القرآن ، فإن كان فيها خطأ فهو منسوب إلى المترجم أو المفسر وليس منسوبا إلى الله سبحانه .

٣ ـ أن يكتب النص القرآنى فى أعلا الصفحة ، ثم يكتب التفسير بعده فى نفس الصفحة ثم تكتب الترجمة بعد التفسير فى الصفحة ذاتها . حتى لا يتوهم متوهم أن هذه ترجمة حرفية للقرآن ، وحتى يكون النص القرآنى وتفسيره ، وترجمة هذا التفسير بين يدى القارىء بحيث يمكنه ـ إن كان من أهل النظر والرأى ـ أن يقارن بين كل ذلك ويتبين أين يقع الخطأ وأين يقع الصواب .

* * *

الفصل الثالث

علوم القرآن الكريم

- معنى علوم القرآن الكريم
- نزول القرآن الكريم
- أسباب النزول
- المكى والمدنى
- جمع القرآن الكريم
- ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره
- مصادر التفسير والعلوم التى يحتاج اليها المفسر
- الاسرائيليات . . ومدى الصلة بينها وبين القرآن الكريم

معنى علوم القرآن الكريم

العلوم جمع علم ، والعلم له اطلاقات ثلاث :

(أ) يطلق تارة ويراد منه المسائل .

(ب) ويطلق تارة أخرى ويراد منه ادراك هذه المسائل .

(جـ) ويطلق ثالثة ويراد منه الملكة .

والقرآن : قيل : مشتق من القرن بمعنى الضم . تقول قرنت الشيء بالشيء اذا ضممته اليه ، وذلك لقران السور والآيات فيه بعضها لبعض . وقيل : مشتق من القرء بمعنى الجمع . تقول قرأت الماء فى الحوض اذا جمعته فيه ، وذلك لأن القرآن جمع ثمرات الكتب السابقة . وقيل : إنه مصدر مهموز بوزن الغفران ، ثم نقل من المصدرية وجعل علما على الكتاب المنزل على النبى ﷺ . وقيل غير ذلك .

وأياً ما كان ، فالقرآن هو كلام الله تعالى ، المنزل على النبى ﷺ المتحدى به ، المتعبد بتلاوته ، المبدوء بسورة الفاتحة ، المختوم بسورة الناس .

والمراد بعلوم القرآن : أنواع من المسائل يبحث فيها عن أحوال القرآن الكريم ، من حيث نزوله ، ووجوه أدائه ، وجمعه ، وترتيبه ، وناسخه ، ومنسوخه ، ومحكمه ، ومتشابهه ، ومجازه ، وإعجازه ، وأحكامه ، وحكمه ، وأمثاله ، وقصصه ، وتفسيره ، وتأويله ، وغير ذلك من مباحثه الكثيرة .

* * *

● **نشأة هذا العلم وتطوره ، وأهم الكتب المؤلفة فيه :**

أولا : عصر ما قبل التدوين ، ويبدأ هذا العصر بنزول القرآن الكريم . وينتهى بنهاية القرن الثانى وأوائل القرن الثالث : وفى هذه المرحلة كانت هناك بعض المباحث التى تتصل بالقرآن الكريم كالناسخ والمنسوخ ، وأسباب النزول ، ووجوه القراءات ، يعلمها النبى ﷺ لأصحابه وهم يعلمونها لمن بعدهم من التابعين ، فكانت الرواية هى الأصل الأول الذى يقوم عليه تحمل هذا العلم خلفا عن سلف ـ شأن غيره من العلوم ـ حتى بدأ عصر التدوين .

ثانيا : من مبدأ عصر التدوين الى نهاية القرن السادس : وفى هذه المرحلة بدأ التأليف فى علوم القرآن ، ولكن لا على طريقة الشمول والاستقصاء لكل مباحثه ، فكانت هناك مؤلفات اقتصر مؤلفوها على موضوع واحد من موضوعات علوم القرآن ، تناولوها بالدراسة الشاملة الكاملة ، فمن ذلك : الناسخ والمنسوخ لأبى جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ هـ وأسباب النزول لعلى ابن أحمد الواحدى ، المتوفى سنة ٤٦٨ هـ ، وإعجاز القرآن لأبى بكر الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ، كما كانت هناك مؤلفات تناولت مباحث متعددة من علوم القرآن ، ومن ذلك كتاب « فنون الأفنان فى علوم القرآن » لأبى الفرج ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ .

ثالثا : القرن السابع الهجرى ، وفى هذه المرحلة تطور التأليف فى علوم القرآن ، فشمل أنواعا متعددة وأكثر مما تناولها السابقون ومن أهم ما ألف فى هذه المرحلة كتاب « المرشد الوجيز فى علوم تتعلق بالقرآن العزيز » لأبى شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ .

رابعا : القرن الثامن الهجرى ، وفى هذه المرحلة ازدهر هذا العلم ، وتناولت المؤلفات التى دونت فيه مباحث أكثر وأشمل مما تناولته كتب المرحلة السابقة ولكن دون استيعاب أيضا ، ومن أهم هذه المؤلفات كتاب « البرهان فى علوم القرآن » لبدر الدين الزركشى المتوفى سنة ٧٩٤ هـ ، ضمنه سبعة وأربعين مبحثا من مباحث علوم القرآن ، وقد طبع هذا الكتاب من زمن قريب فى أربعة أجزاء كبار .

خامسا : القرن التاسع الهجرى ، وفى هذه المرحلة بلغ التأليف فى علوم القرآن حداً قارب النهاية ومن أهم ما ألف فى هذه المرحلة كتاب « الاتقان فى علوم القرآن » لجلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ ، وقد ضمنه ثمانين مبحثا من مباحث علوم القرآن ، وهو يعتمد فى كثير من المباحث على كتاب « البرهان » للزركشى ، ويكثر من النقل عنه .

سادسا : من أول القرن العاشر الى عصرنا الحاضر : وفى هذه المرحلة الأخيرة تحركت همة بعض العلماء ، فألفوا فى علوم القرآن ، كتبا ضمنوها كثيرا من المباحث التى اشتملت عليها الكتب السابقة ، وزادوا مباحث أخرى لم يعالجها أسلافهم بحثا وتأليفا ، كمبحث ترجمة القرآن الكريم ، ومبحث الشبه التى أثيرت حول القرآن من بعض المستشرقين والملاحدة وتفنيدها.ومن هؤلاء المرحوم الشيخ طاهر الجزائرى ، فقد ألف كتابا سماه « التبيان فى علوم

القرآن » ، والمرحوم الشيخ محمد على سلامه ، فقد ألف كتابا سماه « منهج الفرقان فى علوم القرآن » والمرحوم الشيخ عبدالعظيم الزرقانى ، فقد ألف كتابا سماه « مناهل العرفان فى علوم القرآن » .

ولقد جدت أخيرا مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من أهمها : مبحث العلوم الكونية فى القرآن الكريم ، ومبحث الوضع فى تفسيره ، ومبحث الاسرائيليات ومدى صلتها بالقرآن الكريم ، ومبلغ أثرها فى تفسيره ، ولسوف نقتصر فيما نكتب على بعض مباحث علوم القرآن على قدر ما يتسع له وقتنا ، فنقول وبالله التوفيق :

نزول القرآن الكريم

● مراحل نزول القرآن الكريم ، ومعنى النزول فى كل مرحلة :

نزل القرآن على ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : نزوله الى اللوح المحفوظ ، ومعنى ذلك اثباته فيه جملة واحدة ، وفى ذلك جاء قول الله تعالى « **بل هو قرآن مجيد* فى لوح محفوظ** »[1] .

المرحلة الثانية : نزوله الى بيت العزة فى السماء الدنيا . ومعنى ذلك اثباته فيه جملة واحدة . قيل : وفى ذلك جاء قوله تعالى : « **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن . . .** »[2] . . وقوله « **إنا أنزلناه فى ليلة مباركة . .** »[3] ، وقوله: « **إنا أنزلناه فى ليلة القدر** »[4] ولا تعارض بين هذه الآيات ، لأن ليلة القدر هى الليلة المباركة ، وهى من شهر رمضان ، وقد روى الحاكم وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال « أنزل القرآن جملة واحدة الى سماء الدنيا ، وكان بمواقع النجوم ، وكان الله ينزله على رسوله ﷺ ، بعضه فى إثر بعض » .

المرحلة الثالثة : نزوله على النبى ﷺ ، ومعنى ذلك نزول حامله ـ وهو جبريل عليه السلام ـ به ليبلغه الى النبى ﷺ ، وفى ذلك جاء قوله تعالى « **نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين** »[5] . وكان نزول القرآن فى هذه المرحلة مفرقا فى مدة ثلاث وعشرين سنة على ما هو المشهور ، وفى نزوله مفرقا جاء قوله تعالى « **وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا** »[6] .

* * *

● **الفرق بين هذه المراحل الثلاث :**

ومما تقدم يتضح أن الفرق بين المراحل الثلاث لنزول القرآن الكريم هو ما يلى :

---

(١) البروج ٢١ ، ٢٢

(٢) البقرة : ١٨٥

(٣) الدخان : ٣

(٤) القدر : ١

(٥) الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤

(٦) الاسراء : ١٠٦

أولا : أن النزول فى المرحلتين الأوليين كان بمعنى الإثبات ، أما فى المرحلة الثالثة فهو عبارة عن نزول جبريل بالقرآن على النبى ﷺ .

ثانيا : أن النزول فى المرحلتين الأوليين كان جملة واحدة ، أما فى المرحلة الثالثة فكان مفرقا على حسب الحوادث والوقائع وحاجات الناس المتجددة .

* * *

● **كيف تلقى جبريل القرآن عن الله ، وكيف تلقاه النبى ﷺ عن جبريل ؟**

أما كيفية تلقى جبريل للقرآن عن الله ، فقيل إنه كان يؤمر من قبل الله تعالى بحفظه من اللوح المحفوظ . وقيل ـ وهو الراجح ـ انه كان يتلقفه من الله تعالى تلقفا إيمائيا لا ندرك كنهه ، ثم ينزل به على النبى ﷺ ، ومما يشهد لهذا القول الأخير ما رواه الطبرانى من حديث النواس بن سمعان مرفوعا الى النبى ﷺ قال « اذا تكلم الله بالوحى ، أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله ، فإذا سمع بذلك أهل السماء صعقوا وخروا سجدا فيكون أولهم يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله بوحيه بما أراد ، فينتهى الى الملائكة ، فكلما مر بسماء سأله أهلها : ماذا قال ربنا ؟ قال : قال الحق ، فينتهى به حيث أُمِر » .

وأما كيفية تلقى النبى ﷺ للقرآن عن جبريل فكان على طريقتين (٧) :

احداهما : أن النبى ﷺ كان ينخلع من حالته البشرية الى الحالة الملكية فيكلمه جبريل بالوحى ، ويعى عنه النبى ﷺ ما يقول . وهذه أشق الحالتين على رسول الله ﷺ .

ثانيتهما : أن جبريل كان ينخلع من صورته الملكية الى الصورة البشرية فيوحى الى النبى ﷺ ما شاء الله أن يوحى ، والرسول ﷺ يعى عنه ما يقول وكثيرا ما كان يأتى جبريل عليه السلام الى النبى ﷺ على صورة رجل من أصحابه اسمه : دحية الكلبى .

* * *

● **نزول القرآن على النبى ﷺ مفرقا ، وأدلة ذلك :**

تقدم أن القرآن نزل على النبى ﷺ مفرقا على حسب الوقائع والحوادث وحاجات الناس ، وأن ذلك كان فى مدة ثلاث وعشرين سنة على ما هو المشهور من أقوال العلماء ، فقد مكث عليه الصلاة والسلام يدعو الى ربه ، وينزل عليه الوحى ثلاث عشرة سنة فى مكة ، وعشر سنوات فى المدينة ، فتلك ثلاث وعشرون سنة .

---

(٧) يراجع حديث البخارى فى باب بدء الوحى « ... كيف يأتيك الوحى » الخ

ومما يدل على نزول القرآن مفرقا ما يلى :

أولا : قوله تعالى « **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا** »(٨) .

ثانيا : قوله تعالى « **وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة، كذلك لتثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا** »(٩) .

ثالثا : ما جاء فى الأحاديث الصحيحة من أن أول ما نزل من القرآن قوله تعالى « **اقرأ باسم ربك الذى خلق . . .** » إلى قوله « **علّم الإنسان ما لم يعلم** »(١٠) . ثم سورة المدثر ، ثم تتابع الوحى على رسول الله ﷺ .

رابعا : ما جاء فى القرآن من الآيات المبدوءة بقوله تعالى « **يسألونك** . . » نحو : « **يسألونك عن الخمر والميسر** »(١١) « **يسألونك عن الساعة أيّان مرساها** »(١٢) « **ويسألونك عن الروح** »(١٣) ومن المعلوم أن هذه الأسئلة لم توجه الى الرسول ﷺ فى وقت واحد ، وانما وجهت اليه فى أوقات مختلفة ، ويلزم من هذا بالضرورة أن تكون الآيات التى نزلت أجوبة لها نزلت فى أوقات مختلفة كذلك .

* * *

● **نزول الكتب السماوية الأخرى جملة واحدة ، ودليل ذلك :**

المشهور بين العلماء أن الكتب السماوية الأخرى نزلت على الأنبياء جملة واحدة ويكاد ينعقد على ذلك اجماعهم .

وأقوى الأدلة على هذا قوله تعالى « **وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا** » . ووجه الدلالة فى هذه الآية : أن الله سبحان رد على الكفار ببيان الحكمة التى من أجلها نزل القرآن مفرقا .

ولو كانت الكتب السماوية الأخرى نزلت مفرقة مثله لكان أقوى رد يمكن أن يجابوا به أن يقول مثلا « كذلك أنزلنا الكتب السماوية الأخرى مفرقة ، فلم آمنتم بها وكذبتم بالقرآن » ؟ كما رد عليهم حين قالوا ـ منكرين على الرسول ﷺ أن يأكل كما يأكل البشر ويمشى فى الأسواق كما يمشى البشر ـ « **مال هذا**

---

(٨) الاسراء : ١٠٦
(٩) الفرقان : ٣٢
(١٠) العلق : ١ ـ ٥
(١١) البقرة : ٢١٩
(١٢) النازعات : ٤٢.
(١٣) الاسراء : ٨٥

لرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق »[١٤] بقوله « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق »[١٥] .

كما رد عليهم حين قالوا ـ مستبعدين أن يكون الرسول ﷺ بشرا ـ « هل هذا إلا بشر مثلكم »[١٦] بقوله « وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون »[١٧] .

***

● **حكمة نزول القرآن مفرقا :**

نزل القرآن على النبى ﷺ مفرقا لحكم جسيمة ، ومصالح عظيمة ، منها :

أولا : تثبيت قلب النبى ﷺ وقلوب أتباعه من المؤمنين ، فكان كلما حزبهم أمر ، وأهمهم شأن ، نزل من القرآن ما يكشف عنهم ، ويزيل همهم ويرفع همتهم ويشد عزمهم . وقد صرح القرآن بذلك فقال « كذلك لنثبت به فؤادك »

ثانيا : التدرج فى انتزاع العقائد الفاسدة والعادات السيئة .

ثالثا : التدرج فى بث العقائد الصالحة والعادات الحسنة .

رابعا : تيسير حفظه على الأمة .

خامسا : تيسير فهمه عليهم . وهذه الأربعة الأخيرة تدخل تحت قوله تعالى : « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث » أى على مهل وتؤدة وتثبت ، كما قاله الزمخشرى .

سادسا : مجاراة الحوادث فى تجددها ، فكم وقعت للمسلمين من حوادث فى أزمان مختلفة ، ولم يكن لهم علم بما يجب أن يلتزم بالنسبة لهذه الحوادث فكان القرآن ينزل ليوضح لهم حكمها ، ويبين لهم ما يجب أن يلتزموه ازاءها فمن ذلك : حادثة هلال بن أمية لما قذف زوجته بشريك بن سحماء ، فأنزل الله فيه آيات اللعان من سورة النور . ومن ذلك حادثة الإفك التى أشاع فيها المنافقون قالة السوء عن السيدة عائشة رضى الله عنها ، فأنزل الله فى شأنها آيات من سورة النور تصرح ببراءتها وكذب المنافقين فيما رموها به ، وما يجب أن يؤخذوا به من العقوبة على ما كان منهم . ومن ذلك حادثة خولة بنت ثعلبة التى ظاهر منها زوجها فنزلت فيها آيات من أول سورة المجادلة ، تستنكر وقوع

---

(١٤) الفرقان : ٧

(١٥) الفرقان : ٢٠

(١٦) الانبياء : ٣

(١٧) الانبياء : ٧

الطهار من المسلمين وتبين حكمه ، وغير هذا كثير من الحوادث التى نزل القرآن ببيان أحكامها .

سابعا : اجابات السائلين الذين كانوا يسألون رسول الله ﷺ عن بعض الأمور ، إما على سبيل الاستفسار والرغبة فى المعرفة ، كما كان عليه الشأن بالنسبة للمؤمنين ، كسؤالهم عن المحيض ، وسؤالهم عن الخمر والميسر ، وسؤالهم عن الأهلة . وإما على سبيل التثبت من رسالته عليه الصلاة والسلام ، كما كان عليه الشأن بالنسبة للكافرين ، كسؤالهم عن الروح ، وعن ذى القرنين .

ثامنا : تتبع المنافقين بكشف أسرارهم ، وابراز طوايا صدورهم وخفايا نفوسهم فقد كانوا يبطنون الكفر ويتظاهرون بالاسلام ، وكانوا لتغلغلهم بين المسلمين يعلمون الكثير من أسرارهم ، فأخذوا يدبرون لهم الشرور والمكائد ، وكان الله فوق ما يدبرون . فأطلع نبيه على خباياهم وكشف له عن نواياهم بما كان ينزله من الآيات التى أظهرتهم على حقيقتهم ، وفيهم نزلت سورة بتمامها ، وكانوا من أجل ذلك على حذر دائم وهَمّ مقلق من نزول القرآن بما يفضح سرهم ، وفى هذا يقول الله سبحانه « **يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم ، قل استهزءوا إن الله مخرج ما تحذرون** »[١٨] .

تاسعا : تعهد النبى ﷺ ومن معه من المؤمنين بالتنبيه على ما وقع منهم من مخالفات ، فقد وقع من النبى ﷺ خلاف الأولى حيث سمح لمن استأذنه فى التخلف عن غزوة تبوك بالتخلف ، فنبهه الله الى ذلك بقوله « **عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين** »[١٩] . . إلخ

وكما وقع منه عليه الصلاة والسلام خلاف الأولى بقبول أخذ الفداء من أسرى بدر فنبهه الله الى ذلك بقوله « **ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض** . . »الخ[٢٠] .

وكذلك وقع من المسلمين مخالفات ، وكانت لهم أخطاء فنبههم الله عليها فمن ذلك أنهم فى غزوة حنين أعجبتهم كثرتهم حتى قال بعضهم : لن نغلب اليوم من قلة ، فكانت الدائرة عليهم ، وقد نبههم الله إلى خطئهم هذا فقال « **لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين** » . . الخ[٢١] .

---

(١٨) التوبة : ٦٤
(١٩) التوبة : ٤٣
(٢٠) الأنفال : ٦٧
(٢١) التوبة : ٢٥

● **أول ما نزل وآخر ما نزل :**

لهذا البحث أهمية كبيرة لما يترتب على معرفته من الأمور الاتية :

أولا : معرفة الناسخ والمنسوخ من القرآن ، فاذا كان هناك آيتان متعارضتان وتعذر التوفيق بينهما ، وعرفت أولاهما نزولا وآخراهما نزولا أمكننا أن نحكم بأن الآية المتأخرة ناسخة لحكم الآية المتقدمة .

ثانيا : معرفة تاريخ التشريع الاسلامى .

ثالثا : معرفة التدرج فى تشريع الأحكام ، وذلك كالآيات الواردة فى حكم الخمر .

ومن الثابت المقرر أن أول ما نزل وآخر ما نزل ليس بالأمر الذى يدخل تحت اجتهاد المجتهدين ، لأنه لا مجال للعقل فيه ، وانما ترجع معرفة ذلك الى النقل الصحيح عن النبى ﷺ أو عن الصحابة الذين عاصروا نزول القرآن الكريم .

ثم إن أولية النزول وآخريته تارة تكون بالنسبة لما ورد من الآيات فى موضوع خاص ، كتحريم الخمر ، وتحريم الربا ، وفرضية الجهاد ، وغير ذلك من الموضوعات التى اشتمل عليها القرآن ، وتارة تكون الأولية والآخرية بالنسبة الى القرآن كله .

وليس من غرضنا أن نتكلم عن الأولية والآخرية بالنسبة لكل موضوع من الموضوعات التى تناولها القرآن ، لأن هذا أمر يطول الكلام فيه ، ويحتاج الى تتبع الروايات الكثيرة التى وردت فى ذلك ، ويكفى أن نتكلم عن الأولية والآخرية بالنسبة للقرآن كله فنقول :

● **أول ما نزل من القرآن :**

تعددت الروايات واختلفت فى أول ما نزل من القرآن الكريم ، وأشهر ما صح فى ذلك : ما رواه البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها ، قالت: « أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء ، فكان يأتى حراء فيتحنث فيه الليالى ذوات العدد ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة - رضى الله عنها - فتزوده لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فيه فقال : اقرأ ، قال رسول الله ﷺ : فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء » ، فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : « **اقرأ باسم ربك الذى**

خلق » ، حتى بلغ « ما لم يعلم » فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره » . . الحديث .

وهناك رواية ثانية رواها البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه تصرح بأن أول ما نزل من القرآن سورة المدثر ، ولكن هذه الرواية مع صحتها لا تعارض الرواية المتقدمة ، لأنها محمولة ، على أن المراد بأولية المدثر أولية مقيدة ، فالمراد أنها أول سورة نزلت بتمامها ، أو أول ما نزل بعد فترة الوحى ، ولعل الثانى هو أولى الاحتمالين ، لما جاء فى حديث جابر من قوله : فاذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فرجعت فقلت : زملونى زملونى ، فدثرونى ، فأنزل الله « يا أيها المدثر » وهذا صريح فى أن رؤية جبريل فى هذه المرة كانت بعد رؤيته له فى غار حراء وهى التى نزل فيها « اقرأ باسم ربك » .

وهناك رواية ثالثة رواها البيهقى تصرح بأن أول ما نزل من القرآن سورة الفاتحة ولكنها رواية مرسلة لا تقوى على معارضة الرواية الأولى المروية عن عائشه رضى الله عنها .

* * *

● آخر ما نزل من القرآن :

وكذلك تعددت الروايات واختلفت فى آخر ما نزل من القرآن الكريم ، ولكن هذه الروايات على كثرتها ليس فيها شئ مرفوع الى النبى ﷺ ، وانما هى آثار مروية عن بعض الصحابة قالوها عن غلبة ظن منهم ، فمن هذه الأقوال : أن آخر ما نزل قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا »(٢٢) .

ومنها : أن آخر ما نزل قوله تعالى « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون »(٢٣) .

ومنها : أن آخر ما نزل آية الدين وهى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه . . »(٢٤) الى آخر الآية .

ويظهر أن هذه الأقوال الثلاثة لا تنافى بينها : لأن هذه الآيات المذكورة يبدو أنها نزلت دفعة واحدة على حسب ترتيبها فى المصحف ، ولما كانت فى قصة واحدة أخبر كل واحد عن بعض ما نزل منها بأنه آخر ما نزل ، وعلى هذا فيمكن اعتبار هذه الأقوال قولا واحدا ، كما يمكن اعتبارها أصح من الأقوال

---

(٢٢) البقرة : ٢٧٨ (٢٣) البقرة : ٢٨١ (٢٤) البقرة : ٢٨٢

الآتية بعد ، لكثرة ما ورد فيها من روايات ولقوتها ورجحانها عما عداها .

ومن الأقوال الواردة فى آخر القرآن نزولا : ما ورد عن البراء بن عازب من أن آخر آية نزلت قوله تعالى « يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة »[٢٥] . وهذا القول محمول على أنها آخر ما نزل فى شأن المواريث .

ومنها : ما روى عن ابن عباس من أن آخر سورة نزلت « إذا جاء نصر الله والفتح » . وهذا القول محمول على أنها آخر ما نزل مشيرا الى وفاة النبى ﷺ . ، ومنها : ما روى عن أُبّى بن كعب من أن آخر آية نزلت قوله تعالى « لقد جاءكم رسول من أنفسكم . . » الى آخر سورة براءة[٢٦] ، وهذا القول محمول على أن هذه الآية وما بعدها آخر ما نزل من سورة براءة ، وبراءة آخر ما نزل فى شأن القتال .

وهناك أقوال غير ما تقدم لا نطيل بذكرها .

هذا ، وليس قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا »[٢٧] . هو آخر ما نزل من القرآن كما قد يوهمه ظاهر قوله تعالى : « أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى » إذ ليس المراد إكمال أحكام الحلال والحرام ، لما صح من نزول أحكام حلال وحرام بعدها ، وإنما المراد إكمال الدين بإقرارهم فى البلد الحرام واجلاء المشركين عنه ، وهذا هو تمام النعمة عليهم ، كما أفاده ابن جرير فى تفسيره .

* * *

---

(٢٥) النساء : ١٧٦ (٢٦) التوبة : ١٢٨ ، ١٢٩ (٢٧) المائدة : ٣

أسـبـاب الـنـزول

سبب النزول هو ما نزلت الآية أو الآيات إثر وقوعه متضمنة له أو مبينة لحكمـه .

وينقسم القرآن من حيث نزوله الى قسمين : قسم نزل ابتداء دون أن يتقدمه سبب من حادثة أو سؤال . وقسم نزل عقب حادثة أو سؤال ، ليبين حكم هذه الحادثة أو جواب هذا السؤال .

فوائد معرفة أسباب النزول :

ولمعرفة أسباب نزول الآيات فوائد كثيرة أهمها ما يلى :

(أ) معرفة الحكمة التى من أجلها شرع الحكم ، فمثلا اذا علم أن سبب نزول قوله تعالى « **يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى** . . »(١) الآية:هو أن عبد الرحمن بن عوف صنع طعاما وشرابا ودعا نفرا من الصحابة ـ وكانت الخمر مباحة ـ فأكلوا وشربوا ، ولما دخل وقت المغرب قدموا أحدهم ليصلى بهم ـ وكانت الخمر قد لعبت برأسه ـ فقرأ فى صلاته « قل يا أيها الكافرون . أعبد ما تعبدون . وأنتم عابدون ما أعبد » بحذف حرف (لا) من الآيات،إذا علم أن هذا هو سبب نزول الآية علم أن شرعية الحكم الذى تضمنته ـ هو النهى عن قربان الصلاة فى حالة السكر ـ انما كان لحكمة باعثة على تشريعه ، وهى عدم التخليط فى الصلاة .

(ب) الوقوف على معنى الآية وازالة ما قد يشكل من معناها ، ولذلك قال الواحدى : لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها . وقال ابن تيمية : معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية . فان العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب ./ومن أمثلة ذلك : ما رواه الامام أحمد والنسائى عن عثمان بن مظعون وعمرو بن معدى كرب أنهما كانا يقولان الخمر مباحة ، ويحتجان بقوله تعالى (فى سورة المائدة بعد الآيات التى نزلت فى تحريم الخمر على الإطلاق) « **ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا،والله يحب المحسنين** »(٢) ولو علما سبب نزولها لم يقولا ذلك ، وسبب نزولها : هو أن ناسا

(١) النساء : ٤٣ ، وراجع سبب نزولها فى تفسير النسفى .
(٢) المائدة : ٩٣

قالوا ـ لما حرمت الخمر ـ كيف بمن قتلوا فى سبيل الله وماتوا وكانوا يشربون الخمر وهى رجس ؟ فنزلت تبين حكم الله فيهم[٣] .

(جـ) تخصيص الحكم بسبب النزول عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب ، دون التفات منه إلى عموم اللفظ ، فمن يرى هذا الرأى لابد له من معرفة سبب نزول الآية حتى يخص به الحكم المستفاد منها ، أما حكم غيره فهو ثابت بالقياس عنده .

(د) معرفة بقاء صورة السبب قطعا ، وذلك عندما يكون لفظ الآية عاما ويقوم دليل على تخصيصه ، فانه فى هذه الحالة متى عرف سبب النزول عرف ـ بصورة قاطعة ـ أن حكم الآية متناول له ، وأنه لا يخرج من العام بالتخصيص .

(هـ) معرفة من نزلت فيه الآية وتعيين المبهم فيها ، ولهذا أمثلة كثيرة فى القرآن منها : قوله تعالى « **أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا** »[٤] فمن عرف سبب نزول هذه الآية عرف أن لفظ « **الذى** » يراد به العاص بن وائل السهمى ، ومنها قوله تعالى « **ذرنى ومن خلقت وحيدا** »[٥] . الخ فمن عرف سبب نزولها عرف أن لفظ « **من** » مراد به الوليد بن المغيرة المخزومى .

***

● **بم يعرف سبب النزول ؟ :**

لا مجال للعقل فى معرفة أسباب النزول ، وانما طريق معرفة ذلك هو الرواية الصحيحة عمن شاهدوا نزول القرآن الكريم . قال الواحدى : لا يحل القول فى أسباب نزول الكتاب الا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل . ووقفوا على الأسباب ، وبحثوا عن علمها وجدّوا فى الطلاب .

وقد قرر ابن الصلاح وغيره : أن الصحابى الذى شهد الوحى والتنزيل اذا أخبر عن آية أنها نزلت فى كذا ، فانه حديث مسند ، أى أنه فى حكم المرفوع الى النبى ﷺ ، وذلك لأن قول الصحابى فيما لا مجال للرأى فيه محمول على أنه سمعه من النبى ﷺ ، وبعيد كل البعد أن يكون قد قال ذلك من تلقاء نفسه وبمحض رأيه .

أما ما يروى من أقوال التابعين فى أسباب النزول فانه يعد من قبيل المرفوع المرسل ، فاذا اعتضد بمرسل آخر ، أو كان التابعى من أئمة التفسير الآخذين

---

(٣) راجع الاتقان جـ١ ص ٣٠ (٤) مريم : ٧٧ (٥) المدثر : ١١

عن الصحابة قبل قوله ، وعلى الجملة فان السلف ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا يتحرزون من القول فى أسباب النزول بغير علم وتثبيت ، ومما يروى فى ذلك أن ابن سيرين رضى الله عنه قال : سألت عبيدة عن آية من القرآن فقال : اتق الله وقل سدادا ، ذهب الذين يعلمون فيم أنزل القرآن .

* * *

● **إختلاف عبارات الرواة فى أسباب النزول :**

تختلف عبارات الرواة فى أسباب النزول فتارة يقول الراوى : سبب نزول هذه الآية هكذا . وتارة يقول : نزلت هذه الآية فى كذا ، وفرق بين العبارتين ، فالعبارة الأولى نص صريح فى بيان السبب ، والعبارة الثانية ليست نصا فى بيان السبب ، وانما هى محتملة لأحد أمرين ، فتارة يراد بها بيان السبب ، وتارة يراد بها التفسير وبيان الحكم ، فما يذكره يكون داخلا فى الآية ولا يكون سببا لها .

* * *

● **حكم ما إذا تعددت الروايات فى سبب النزول :**

كثيرا ما تتعدد الروايات فى سبب النزول مع اتحاد عبارات الرواة فى ذلك أو مع اختلافها :

فان اختلفت عبارات الرواة بأن قال أحدهم : نزلت هذه الآية فى كذا ، وقال الآخر : سبب نزول هذه الآية كذا ، فالعبارة الثانية نص فى بيان السبب فتعتمد فى ذلك ، وأما العبارة الأولى فلا يعتمد عليها فى بيان السبب لأنها ليست نصا فيه ، وانما تعتبر بيانا لحكم الآية ما دام لفظها محتملا له .

وان اتحدت عبارات الرواة بأن قال أحدهم : نزلت هذه الآية فى كذا ، وقال الآخر : نزلت هذه الآية فى كذا ، وذكر غير ما ذكره الأول ، فان كانت الآية تحتمل كلا القولين حكمنا بصحتها ، لأن هذا من قبيل التفسير وبيان مضمون الآية ، وان كانت الآية تحتمل أحد القولين دون الآخر حكمنا بصحة ما تحتمله الآية وتركنا ما عداه .

أما إن اتحدت عبارات الرواة بأن قال أحدهم : سبب نزول هذه الآية كذا ، وقال الآخر : سبب نزول هذه الآية كذا ، وذكر سببا غير الذى ذكره الأول ، فهذه حالة تحتها أربع صور :

الصورة الأولى : أن يكون اسناد أحد القولين صحيحا ، واسناد القول الآخر غير صحيح . وحكم هذه الصورة أننا نعتمد الصحيح دون غيره .

الصورة الثانية : أن يكون اسناد كل من القولين صحيحا ولكنه يمكن ترجيح أحدهما على الآخر بوجه من وجوه الترجيح . وحكم هذه الصورة ، أننا نعتمد الراجح دون المرجوح .

الصورة الثالثة : أن يكون اسناد كل من القولين صحيحا ولا مرجح لأحدهما على الآخر ، غير أنه يمكن الجمع بينهما والأخذ بهما معا لما بينهما من تقارب . وحكم هذه الصورة أننا نعتمد كلا القولين ، ويحمل ذلك على تعدد الأسباب لآية واحدة ما دامت الآية مفيدة لحكم السببين أو الأسباب .

الصورة الرابعة : أن يكون اسناد كل من القولين صحيحا ، ولا مرجح لأحدهما على الآخر ، ولا يمكن الجمع بينهما والأخذ بهما معا . وحكم هذه الصورة أننا نعتمد كلا القولين ، ويحمل ذلك على تكرر نزول الآية ، عقب كل من السببين ، فمثلا روى البيهقى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ وقف على حمزة حين استشهد وقد مثل به فقال :«لأمثلن بسبعين منهم مكانك»فنزل جبريل والنبى ﷺ واقف بخواتيم سورة النحل « **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به** . . » الى آخر السورة ، وروى الترمذى عن أبىّ بن كعب رضى الله عنه قال : لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون ، ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا بهم ، فقالت الأنصار : لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لنربين عليهم ، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله « **وإن عاقبتم** . . » فالرواية الثانية تقتضى نزولها يوم فتح مكة ، ولا مخرج من هذا التنافى ـ بعد ما ثبت من صحة الروايتين وعدم رجحان احداهما على الأخرى ـ إلا بأن نقول : إن الآية نزلت أولا يوم أحد لبيان الحكم الذى تضمنته ، ثم نزلت ثانيا يوم فتح مكة تذكيرا لهم بهذا الحكم فى وقت كان يُخشى أن تأخذهم فيه نشوة النصر فيغفلوا عن حكم الله .

* * *

● **قد تنزل آيات متعددة لسبب واحد :**

قد تنزل آيات متعددة ومتفرقة بناء على سبب واحد ، وذلك عكس ما تقدم فى الصورة الثالثة من تعدد الأسباب لآية واحدة ، ومن أمثلة تعدد الآيات لسبب واحد : ما رواه الترمذى عن أم سلمة أنها قالت : يا رسول الله ، لا أسمع الله ذكر النساء فى الهجرة بشىء ، فأنزل الله « **فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم فى ذكر أو أنثى ، بعضكم من**

بعض . . » الآية[٦] ، وما رواه الحاكم عن أم سلمة أيضاً أنها قالت : قلت يا رسول الله ، تذكر الرجال ولا تذكر النساء فأنزلت « إن المسلمين والمسلمات . . »[٧] ، وأنزلت « أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى » فهاتان آيتان إحداهما فى سورة آل عمران ، والأخرى فى سورة الأحزاب ، وكلتاهما نزل لسبب واحد هو كلام أم سلمة رضى الله عنها .

* * *

● العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب :

اذا نزلت الآية بلفظ يفيد العموم وكان سببها خاصا ، فجمهور العلماء على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وذلك كآيات اللعان مثلا جاءت بلفظ يفيد العموم وهو قوله تعالى « والذين يرمون أزواجهم »[٨] إلخ مع أنها نزلت فى حادثة خاصة وهى قذف هلال بن أمية لزوجته بشريك بن سحماء ، فحكم الآية وهو اللعان يتناول كل من قذف زوجته ولم يكن له شهداء على ذلك ، فيشمل هلال بن أمية وغيره ، ولا يختص به دون غيره من قذفة زوجاتهم

وقد استدل الجمهور على مذهبهم هذا بأن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ قد استدلوا فى وقائع كثيرة بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة ، فجعلوا حكمها متناولا لكل من يدخل تحت عموم اللفظ ولم يقصروه على من نزلت فيه الآية . وكذلك استدل الجمهور على ما ذهبوا اليه بأنه لو لم تكن العبرة بعموم اللفظ لكان معنى ذلك استعمال اللفظ العام فى معنى خاص بدون فائدة ، وهذا خلاف الأصل وخروج عن المألوف من أساليب العرب .

أما غير الجمهور ، فقد ذهبوا الى أن العبرة بخصوص السبب دون التفات الى ما يفيده اللفظ من العموم ، ومعنى هذا أن الآية خاصة بمن نزلت فيه فحكمها يتناوله وحده بالنص ، أما غيره ممن على شاكلته فحكمه نفس الحكم ، لكن بطريق القياس على صورة السبب لا بطريق النص القرآنى، ولأصاب هذا الرأى أدلة واهية مردودة ، نعرض عنها ولا نطيل بذكرها .

* * *

---

(٦) آل عمران : ١٩٥ (٧) الأحزاب : ٣٥
(٨) النور : ٦

المكى والمدنى

عنى العلماء من قديم بمعرفة المكى والمدنى من القرآن الكريم ، وكان عبدالله بن مسعود من أعلم الصحابة بذلك ، ولقد روى البخارى عنه أنه قال : والله الذى لا إلٰه غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ، ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أنزلت ، ولو أعلم أحدا أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه .

● **فائدة معرفة المكى والمدنى :**

ولمعرفة المكى والمدنى فائدة مهمة ، هى : معرفة الناسخ والمنسوخ من أحكام القرآن الكريم ، فإذا تعارضت آيتان ولم يمكن الجمع بينهما ، وتبين لنا أن إحداهما مكية والأخرى مدنية ، حكمنا بأن الآية المدنية ناسخة لحكم الآية المكية ، لأن المدنية متأخرة ، والمكية متقدمة ، والمتأخر ينسخ المتقدم . وما وقع من اختلاف العلماء فى بعض السور هل هى مكية أو مدنية ، فأمره هيّن ، لأن ذلك على قلته قد وقع فى السور التى ليس فيها ناسخ ولا منسوخ ، ومع ذلك فالخلاف الواقع فى بعض السور لا يعتد به .

* * *

● **اصطلاحات العلماء فى بيان المكى والمدنى :**

للعلماء فى بيان المكى والمدنى اصطلاحات ثلاثة :

أولها : أن المكى ما نزل قبل الهجرة ، ولو كان نزوله فى غير مكة . والمدنى ما نزل بعد الهجرة ولو كان نزوله فى غير المدينة ، وعلى هذا فما نزل فى طريق المدينة قبل وصول النبى ﷺ اليها فهو من المكى ، وما نزل فى مكة عام الفتح من قوله تعالى « **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها** . . »[1] . وما نزل فى عرفة عام حجة الوداع من قوله « **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** . . »[2] فهو من المدنى ، وكذا كل ما نزل على النبى ﷺ فى أسفاره بعد الهجرة ، وهذا الاصطلاح ملاحظ فيه الزمان ، وهو المشهور بين العلماء لأنه مطرد وحاصر للأقسام .

---

(١) النساء : ٥٨ (٢) المائدة : ٣

ثانيها : أن المكى : نزل على النبى ﷺ فى مكة ولو بعد الهجرة ، والمدنى : ما نزل عليه فى المدينة ، ويدخل فى مكة ضواحيها كمنى وعرفة والحديبية ، كما يدخل فى المدينة ضواحيها كأحد ، وسلع . وهذا الاصطلاح ملاحظ فيه المكان ، وليس له شهرة الاصطلاح الأول ، لأنه غير حاصر ، ويلزمه وجود قسم ثالث لا هو من قبيل المكى ، ولا هو من قبيل المدنى ، وذلك كالآيات التى نزلت على النبى ﷺ فى أسفاره كتبوك وغيرها .

ثالثها : أن المكى : ما كان خطابا لأهل مكة ، والمدنى : ما كان خطابا لأهل المدينة وعلى هذا يحمل قول من قال : ما كان فى القرآن من « يا أيها الناس » فهو خطاب لأهل مكة . وما كان فيه من « يا أيها الذين آمنوا » فهو خطاب لأهل المدينة . وهذا الاصطلاح ملاحظ فيه المخاطب ، وهو أيضا ليس فى شهرة القول الأول ، لأنه غير مطرد : فسورة البقرة فيها « يا أيها الناس » وهى مدنية ، وسورة النساء مبدوءة بـ « يا أيها الناس » وهى مدنية أيضاً .

هذا وقد بين لنا العلماء السور المكية ، والسور المدنية ، والسور التى اختلف فى كونها مكية أو مدنية ، كما أنهم بينوا لنا الآيات المدنية التى وقعت فى السور المكية ، والآيات المكية التى وقعت فى السور المدنية . على اختلاف بينهم فى بعض ذلك .

وقد نقل السيوطى عن ابن الحصار : أن السور المدنية باتفاق عشرون سورة ، وأن السور المختلف فيها اثنتا عشرة ، وما عدا ذلك مكى باتفاق . فأما السور المدنية باتفاق فهى : سورة البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنفال ، والتوبة ، والنور ، والأحزاب ، ومحمد ، والفتح ، والحجرات ، والحديد ، والمجادلة ، والحشر ، والممتحنة ، والجمعة ، والمنافقون ، والطلاق ، والتحريم ، والنصر .

وأما المختلف فيها فهى : الفاتحة ، والرعد ، والرحمن ، والصف ، والتغابن ، والتطفيف ، والقدر ، والبينة ، والزلزلة ، والاخلاص ، والمعوذتان .

وأما المكى باتفاق فهو ما عدا ما تقدم ، وهو اثنتان وثمانون سورة ، وقد نظم ابن الحصار ذلك كله فى أبيات من الشعر ذكرها السيوطى فى الإتقان[٣] .

* * *

---

(٣) الجزء الأول ص ١١ ، ١٢

● ضوابط معرفة المكى والمدنى :

أهم ما يعتمد عليه فى معرفة المكى والمدنى من القرآن الكريم هو النقل الصحيح عن الصحابة أو التابعين رضوان الله عليهم أجمعين .

وهناك ـ عدا النقل الصحيح عن الصحابة والتابعين ـ ضوابط كلية لكل من المكى والمدنى ، واليك بيانها :

أولا ـ ضوابط المكى :

(أ) كل سورة فيها « كلا » مكية ، وقد وردت فى القرآن ثلاثا وثلاثين مرة ، فى خمس عشرة سورة ، كلها فى النصف الأخير من القرآن .

(ب) كل سورة فيها السجدة مكية ما عدا الحج .

(جـ) كل سورة فى أولها حروف المعجم مكية ما عدا البقرة وآل عمران باتفاق ، وفى الرعد خلاف .

(د) كل سورة فيها قصة آدم وابليس مكية ما عدا البقرة .

(هـ) كل سورة فيها قصص الأنبياء السابقين والأمم الماضية مكية ما عدا البقرة .

(و) كل سورة فيها « يا أيها الناس » وليس فيها « يا أيها الذين آمنوا » مكية .

ثانيا ـ ضوابط المدنى :

(أ) كل سورة فيها أمر بالقتال مدنية .

(ب) كل سورة فيها بيان الحدود والفرائض مدنية .

(جـ) كل سورة فيها ذكر المنافقين مدنية ما عدا العنكبوت .

* * *

● مميزات كل من المكى والمدنى :

كل من يتتبع سور القرآن الكريم وآياته يستطيع بكل سهولة ويسر أن يلحظ تميز كل من مكى القرآن ومدنيه بمميزات خاصة ، هى فى واقع الأمر نتيجة لمراعاة مقتضى حال المخاطبين بالقرآن الكريم ، واليك بيان هذه المميزات لكل من القسمين :

أولاً : مميزات القسم المكى :

(أ) الدعوة الى أصول العقائد ، من وجوب الإيمان بالله وصفاته ، والإيمان بالرسل وما أنزل عليهم من الكتب السماوية ، والإيمان بالملائكة ، واليوم الآخر ، وما فيه من جنة ونار ، وعذاب ونعيم ... الخ .

(ب) محاجة المشركين وابطال معتقداتهم ، وتسفيه أحلامهم ، وتقبيح عاداتهم ، واقامة البراهين على ما جحدوه من الألوهية والنبوة وما يتبعهما من المعتقدات السليمة .

(جـ) الدعوة الى أصول التشريع العامة ، وقواعد الأخلاق الفاضلة ، وهى كل ما يتعلق بحفظ النفس ، والمال ، والعقل ، والعرض ، والدين .

(د) ذكر قصص الأنبياء السابقين ، وما جرى بينهم وبين أقوامهم ، وما كان من عاقبة الأنبياء وأتباعهم المؤمنين من النصر والظفر ، وما كان من عاقبة المكذبين من الهلاك والدمار ، ليكون من وراء ذلك عبرة وعظة للواقفين فى سبيل دعوة النبى محمد ﷺ ، وبشارة وتسلية للنبى ﷺ ، ولمن معه من المؤمنين .

(هـ) قصر أكثر آياته وسوره ، وذلك هو المناسب لمقتضى الحال ، فأهل مكة كانوا أهل بلاغة وفصاحة ، كما كانوا أهل عناد واستكبار ، فناسبهم أن يخاطبوا بهذه الجمل القصيرة البليغة ، المليئة بالزجر والوعيد ، المشتملة على التقريع والتهديد ، ولقد كانت لشدة وقعها تصخ آذانهم ، وتعطل أذهانهم ، وتعقل بيانهم ، لما جمعت من قوة المعنى مع ايجاز اللفظ ، حتى قال الوليد ابن المغيرة فى القرآن رغم كفره قولته المشهورة : « إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما هو بقول بشر » .

ثانيا ـ مميزات القسم المدنى :

(أ) بيان قواعد التشريع بالنسبة للعبادات والمعاملات ، كأحكام الصلاة ، والزكاة والحج ، والنكاح ، والطلاق ، والبيع ، والربا ، والرهن . . . الخ .

(ب) محاجة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وبيان ما كان منهم من انحراف فى العقيدة ، وتحريف لأحكام الله وذلك لوجود جماعة كثيرة من اليهود والنصارى فى المدينة وما جاورها .

(جـ) بيان حال المنافقين ، والكشف عن أسرارهم لكثرة وجودهم بين المسلمين فى المدينة .

(د) ذكر أحكام القتال ، وما يتعلق به من الصلح ، والغنائم ، والأسرى . . الخ .

(هـ) طول أكثر سوره وآياته لاشتمالها على بيان الأحكام وتوضيحها ، وذلك ـ فى الغالب ـ يقتضى الإطناب ، والتفصيل .

* * *

● الشبه التى أثيرت حول كل من المكى والمدنى وردها :

كثيرا ما أثار . ويثير أعداء الاسلام الشكوك والأوهام حول القرآن الكريم ، قصدا الى زعزعة عقائد المسلمين ، وتشكيكهم فى كتابهم الذى جعل الله فيه خيرهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾[4] .

ولقد حاول المشركون فى أول الدعوة ... التشكيك فى القرآن ، بزعمهم أنه سحر ، وأنه أساطير الأولين ، ولكن لم يفلحوا فى حملتهم على القرآن ، بل سرعان ما دخلوا فى دين الله أفواجا عن عقيدة واقتناع ، وها هم أولاء أعداء الاسلام يبذلون جهدهم . ويشيعون أضاليلهم ، ولا يدخرون وسعا فى العمل على حجب هذا النور المنبعث من القرآن الكريم بما يتقولونه عليه ، والقران هو القرآن بنوره وهديه ، وسيبقى على ذلك أبد الآبدين ، ولو كره الكافرون .

وها هى أهم الشبه نسوقها ونعقب عليها بالرد والتفنيد :

● الشبهة الأولى : قالوا : ان القسم المكى قصير السور ، قصير الآيات ، وأما القسم المدنى فانه طويل السور طويل الآيات ، والسبب فى هذا الاختلاف انما هو تأثر محمد ﷺ بالبيئة ، وأما أهل المدينة ، فكانوا إما أهل كتاب أو متصلا بأهل الكتاب ، ولديهم القدرة على انشاء العبارات الطويلة ، فلما كان محمد ﷺ بمكة تأثر بأسلوب أهلها فجاء القسم المدنى على نهجه فى الطول ، وغرضهم بهذا أن يثبتوا كون القرآن من عند محمد ﷺ وليس من عند الله عز وجل .

وللرد على هذه الشبهة نقول :

(أ) إن طول الكلام وقصره تابع لمقتضى الحال الذى هو عماد البلاغة ، وليس تابعا للبيئة ولا متأثرا بها كما يدعى هؤلاء المضللون .

(ب) إن دعوى أن أهل مكة لم تكن عندهم القدرة على انشاء العبارات الطويلة خلافا لأهل المدينة ، دعوى يكذبها الواقع والتاريخ ، فإلى أهل مكة كان يرجع خطباء العرب وشعراءهم للحكومة بينهم أيهم أبلغ مقالا ، وأفصح بيانا ، وما هذا إلا لأنهم كانوا فرسان البلاغة والفصاحة من بين قبائل العرب كلها .

(جـ) تحدى القرآن العرب جميعا ، تحداهم فى آيات بعضها مكى وبعضه

---

(٤) التوبة : ٣٢

مدنى ، فقد جاء فى سورة هود المكية قوله تعالى : « **فأتوا بعشر سور مثله مفتريات** »[٥] وجاء فى سورة الإسراء المكية قوله تعالى : « **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** »[٦] ، وجاء فى سورة البقرة المدنية قوله تعالى « **وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين** »[٧] فلو أن محمداً ﷺ كان متأثراً بأهل مكة أو بأهل المدينة فى أسلوبه لقدروا على معارضة القرآن ولجاءوا ولو بمثل أقصر سورة منه وهى سورة الكوثر ، ولكن ثبت بيقين عجزهم جميعا عن معارضة القرآن ، فكيف يقال بعد ذلك أن محمداً ﷺ تأثر بأسلوب أهل مكة والمدينة فجاء بالقرآن من عند نفسه وعلى نهج أسلوبهم ، ثم نسبه كذبا إلى الله ؟ !! . .

(د) هذه الشبهة مردودة من أساسها ، اذ أن بعض السور المكية طويلة فى ذاتها وطويلة فى آياتها ، وذلك كسورة هود وسورة يوسف ، كما أن بعض السور المدنية قصيرة فى ذاتها ، قصيرة فى آياتها ، وذلك كسورة : الزلزلة ، وسورة النصر .

● **الشبهة الثانية** : قالوا : إن القسم المكى خال من التشريعات التفصيلية والأحكام العملية ، وأما القسم المدنى فقد كثرت فيه هذه التشريعات ، وذلك لأن محمداً ﷺ بعد أن هاجر الى المدينة اختلط بأهل الكتاب ، وعرف تشريعاتهم ، فنهج على منهجهم ، وهذا دليل على أن محمداً ﷺ تأثر بالبيئة ، وبالتالى دليل على أن القرآن من عنده وليس من عند الله .

وللرد على هذه الشبهة نقول : إن القرآن الكريم نزل أول ما نزل فى مكة على قوم لا يقرون بأصول الإيمان من توحيد الله تعالى ، والإيمان برسله واليوم الآخر ، وكانوا مع ذلك لا يحترمون نفسا ولا عرضا ولا مالا ، فكان من الحكمة أن يقتصر القرآن فى مكة على دعوة أهلها إلى أصول الإيمان وإلى قواعد الأخلاق العامة ، وليس من الحكمة أن يدعوهم الى الأحكام التفصيلية وهم بعد لا يعترفون بالأصول ولا يقيمون لها وزنا ، أما أهل المدينة فكانوا قد آمنوا بأصول العقائد والأخلاق ، فكان من الحكمة ـ وهذه حالهم ـ أن يدعوهم إلى الأحكام التفصيلية والى نظم المعاملات الحقة التى تكون بينهم وبين خالقهم ، وبين بعضهم وبعض .

---

(٥) هود : ١٣
(٦) الإسراء : ٨٨
(٧) البقرة : ٢٣

● الشبهة الثالثة : قالوا : إن القسم المكى مشتمل على الوعيد والتهديد والقسوة والشدة ، والعنف والحدة ، أما القسم المدنى فيشتمل على الملاينة والملاطفة ، والصفح والعفو ، وهذا دليل على تأثر القرآن بالبيئة ، فأهل مكة كانوا أهل عنف وشدة ، وأهل المدينة كانوا أهل يسر ولين ، ومعنى هذا أن القرآن من صنع محمد ﷺ وليس من عند الله .

وللرد على هذه الشبهة نقول : إن لين الأسلوب وشدته ليس بالأمر الذى يخضع لأثر البيئة ، وانما يتبع الأسلوب مقتضى حال المخاطب به ، ففى بعض المواطن يقتضى حال المخاطب أن يكون أسلوب خطابه قاسيا عنيفا ، وفى بعضها يقتضى حال المخاطب أن يكون أسلوب خطابه هينا لينا ، وفى كثير من الآيات المكية نجد الأسلوب فى غاية الملاينة والملاطفة ، كما جاء ذلك فى قوله تعالى من سورة الأعراف المكية « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين »[٨] وكما جاء فى سورة فصلت المكية قوله تعالى « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون » إلى أن قال « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم »[٩] ، كما أنه فى كثير من الآيات المدنية نجد أسلوب القرآن عنيفا قاسيا ، وذلك كما فى قوله تعالى فى سورة التوبة المدنية « إلاّ تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا ، والله على كل شيء قدير »[١٠] وقوله فيها : « وممن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة،مردوا على النفاق لا تعلمهم ، نحن نعلمهم ، سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم »[١١] .

● الشبهة الرابعة : قالوا : إن القسم المكى قد كثر فيه القسم بالأشياء المحسوسة من الأمكنة والأزمنة ، والكواكب ، والثمار ، وغير ذلك ، وما ذاك الا لأن أهل مكة قوم لا تعدو مداركهم المحسوسات ، أما أهل المدينة فمداركهم تعلو على المحسوسات ، ولذا جاء أسلوب القرآن فى القسم المدنى خاليا من القسم بها .

وللرد على هذه الشبهة نقول : إن دعوى أن أهل مكة لا تعدو مداركهم المحسوسات دعوى لا تقوم على أساس صحيح ، فأهل مكة كانوا من أرقى العرب فهما وإدراكاً ، وكيف ينسبون الى عدم ادراك ما فوق المحسوس مع أن

---

(٨) الأعراف : ١٩٩
(٩) فصلت : ٣٠ ـ ٣٤
(١٠) التوبة : ٣٩
(١١) التوبة : ١٠١

الله سبحانه قد طالبهم بالايمان به وبصفاته وباليوم الآخر وما فيه ، فهل يعقل أن من يطالب بالإيمان بهذه المغيبات لا يدرك ما وراء الحس ؟ اللهم إن هذا كذب وبهتان .

نعم كثر القسم بالمحسوسات فى القسم المكى ، وخلا القسم المدنى من ذلك ، والسر فى هذا هو أن أهل مكة كانوا لا يؤمنون بالله سبحانه ولا بما له من صفات كالقدرة وغيرها ، فكان من الحكمة أن يوجه الله سبحانه أنظارهم الى ما بثه فى الكون من آياته وعجائب مخلوقاته ، ليأخذوا منها الأدلة على وجوده سبحانه ، وعلى أنه الإله الواحد القادر ، الذى لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

● **الشبهة الخامسة** : قالوا إن القسم المكى قد افتتح كثير من سوره بألفاظ غير ظاهرة المعنى مثل ((ألم)) و ((حم)) و ((طسم)) وغيرها من فواتح السور المفتتح بالحروف الهجائية والخطاب بها كالخطاب بالمهمل الذى لا يفيد واشتمال القرآن عليها ينافى كونه هدى للناس وإلا فأى هداية تقع بأمثال هذه الحروف التى لا تفيد معنى فهى لا تعدو أحد أمرين :

إما أن تكون رموزاً قد قصد بها التهويل والتعمية وإظهار القرآن فى مظهر مخيف .

وإما أن تكون رموزاً قد وضعت للتمييز بين المصاحف المختلفة ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن فصارت قرآنا . بل تجاوز بعضهم حد الطعن فقال إن هذه الألفاظ مما وضعه اليهود من كتبة محمد ﷺ ومعناها « أوعز إلى محمد » أو « أمرنى محمد » والذى حملهم على زيادتها تبرؤهم من الإيمان بما يأمرهم بكتابته . هذا ما يقوله الطاعنون على فواتح السور والغرض منها التشكيك فى القرآن .

وللرد على هذه الشبهة نقول :

(أ) أما دعوى أن هذه الفواتح ليس لها معنى وأن اشتمال القرآن عليها لا يفيد فإنها دعوى من لم يطلع على آراء العلماء فى فواتح السور . وأكثر العلماء على أن فاتحة كل سورة اسم للسورة التى افتتحت بها . وقد وردت آثار كثيرة تفيد ذلك فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « من قرأ حم السجدة حُفِظَ إلى أن يصبح » وروى عنه أيضا أنه قال « يس قلب القرآن » وقد اشتهرت بعض السور بالتسمية بفواتحها . ولا يرد اشتراك بعض السور فى فاتحة واحدة لأن

دلك لا ينافى كونها اسماً للسور كالأعلام المشتركة اشتراكا لفظياً . وهذا معهود فى اللغة العربية ويضم إلى كل اسم ما يميز مسماه عن غيره مثل (ألم) البقرة ، (ألم) آل عمران وهكذا .

وعلى ذلك فتكون هذه الأسماء مفيدة لمعنى معلوم عند المخاطَبين . ويدل على هذا الرأى ـ خلاف الآثار السابقة وشهرة التسمية ـ أنه لو لم تكن العرب قد فهموا منها مدلولاً لكانوا أول من أنكر ذلك على النبى ﷺ . مع أن النبى ﷺ قد تلا عليهم حم ، طسم ، ألم وغيرها ولو أنكروا لُنقل الينا ذلك فعدم إنكارهم دليل على أنهم كانوا يفهمون منها معناها . كيف وقد كانوا حريصين على وجود هفوة أو ذلة يشهرون بها . وأيضا فالرسول ﷺ قد تحداهم بالقرآن غير مرة فكيف يقع التحدى بما لا معنى له من الكلام ويسكتون على ذلك ؟ واذا ثبت أنها لمعنى مفهوم لم تكن من قبيل المهمل . ولا تنافى كون القرآن هدى وبيانا للناس .

(ب) وأما قوله:إنها رموز وضعت للتمييز بين المصاحف فألحقها مرور الزمن بالقرآن فيرده أن الصحابة جمعوا القرآن ولم يدخلوا فيه إلا ما ثبت قرآنه بالتواتر عن رسول الله ﷺ ويبقى ذلك متواترا الى اليوم .

(جـ) أما قول بعض الطاعنين : إنها من وضع اليهود الذين كانوا يكتبون لمحمد ﷺ فهذه دعوى ساقطة عن الاعتبار ضرورة أنه لم يعرف فى أى تاريخ أن النبى ﷺ كان له كتبة من اليهود فهذا مجرد اختلاق على الحقيقة والتاريخ . وعلى فرض صحة ذلك ففى أى لغة يكون آلم أو كهيعص أو طسم أو غيرها بمعنى « أوعز إلى محمد » أو « أمرنى محمد » هذا زعم كاذب وقول لا وجود له إلا فى وهم مخترعه .

● الشبهة السادسة : قالوا : ان القسم المكى خال من الحجج والبراهين بخلاف القسم المدنى فإنه هو الذى جاء بالحجة والبرهان . وهذا يدل على تأثر القرآن بالوسط الذى كان فيه محمد ﷺ .

وللرد على هذه الشبهة نقول :

(أ) ان هذا زعم من لم يدرس القرآن ولم يعرف مكيه من مدنيه ، فإنه لو نظر قليلاً لوجد القسم المكى مملوءاً بالحجج والبراهين على توحيد الله وعلى البعث والنبوات التى تبهر العقول ، وتأخذ بالألباب وتهدى الضال . وان شئت نموذجا من براهين القسم المكى فاقرأ قوله تعالى فى سورة الأنبياء المكية

« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » [١٢] . وقوله تعالى فى سورة الروم المكية « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » إلى قوله « وله من فى السموات والأرض ، كل له قانتون »[١٣] وقوله تعالى فى سورة النمل المكية « أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، أإله مع الله ، بل هم قوم يعدلون » الى قوله تعالى « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »[١٤] ولو تتبعنا سور القرآن المكية لوجدنا أكثرها لا يخلو من حجة ودليل فدعوى خلو القسم المكى من الحجاج قول من لم يكلف نفسه مؤونه النظر فى القرآن ولكنه يرجح بالغيب ولا يدرى ماذا يقول .

هذه خلاصة الشبه وردها وقد اقتصرنا على ما ذكر ليكون نموذجا لغيره والله الموفق للصواب .

* * *

(١٢) الأنبياء : ٢٢

(١٣) الروم : ٢٠ ـ ٢٦

(١٤) النمل : ٦٠ ـ ٦٤

جمع القرآن الكريم

ورد جمع القرآن الكريم على معنيين :

الأول : جمعه بمعنى حفظه ، ومنه قوله تعالى فى سورة القيامة « إن علينا جمعه وقرآنه »[1] أى جمعه فى صدرك ، واثبات قراءته فى لسانك . ومنه أيضا ما رواه البخارى عن قتادة قال : « سألت أنس بن مالك رضى الله عنه عمن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ ، قال : « أربعة كلهم من الأنصار : أبىّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد » ، والمراد - والله أعلم - أن هؤلاء الأربعة هم الذين حفظوا القرآن تلقينا من رسول الله ﷺ ، أما غيرهم من الصحابة الذين حفظوا القرآن - وهم كثير - فقد حفظوا بعضه تلقيناً من الرسول ﷺ ، وبعضه الآخر عن اخوانهم من الصحابة .

الثانى : جمعه بمعنى كتابته ، وقد كتب القرآن الكريم ثلاث مرات فى ثلاثة عهود :

أولها : عهد النبى ﷺ .

ثانيها : عهد أبى بكر رضى الله عنه .

ثالثها : عهد عثمان رضى الله عنه .

ونتكلم عن جمع القرآن - بمعنى كتابته - فى كل عهد من هذه العهود الثلاثة فنقول :

أولا - جمع القرآن على عهد النبى ﷺ :

نزل القرآن الكريم على النبى ﷺ مفرقا فى ثلاث وعشرين سنة ، وكان كلما نزلت عليه آية أو أكثر دعا بعض من يكتب له الوحى وأمره بكتابة ما نزل ، وكانوا يكتبونه فى الرقاع واللخاف والعسب والأكتاف[2] ، ولم يمت رسول الله ﷺ إلا والقرآن كله قد كتب بين يديه بواسطة كتاب الوحى . ولقد كان بعض الصحابة يكتبون لانفسهم ما تيسر لهم من القرآن ، وكان بعضهم يعتمد على الحفظ ولا يكتب منه شيئا .

---

(١) القيامة : ١٧

(٢) الرقاع : جمع رقعة ، وكانت من الجلد فى هذا العهد ، واللخاف : جمع لخفة وهى الحجارة الرقيقة البيضاء ، والعسب : جمع عسيب وهو جريد النخل كان يكشط من عليه الخوص ويكتب على الناحية العريضة منه .

● **الباعث على كتابة القرآن فى عهد النبى ﷺ :**

والسبب الباعث على جمع القرآن فى عهد النبى ﷺ انما هو تبليغ الوحى على الوجه الأكمل ، إذ أن حفظ الصحابة للقرآن الكريم لا يتحقق به وحده ما ضمنه الله له من الحفظ الذى نوّه عنه فى سورة الحجر بقوله « **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** »(٣) ، فكان لا بد للإبقاء على سلامة القرآن من ضياع شيء منه بسبب النسيان أو موت بعض حفظته من أن تنضم الكتابة الى الحفظ لأن الكتابة باقية لا يتطرق اليها ما يتطرق الى المحفوظ من نسيان ونحوه ، وبهذا يكون قد اجتمع على حفظ القرآن عاملان هما : الحفظ والكتابة .

● **مميزات جمع القرآن على عهد النبى ﷺ :**

ويمتاز جمع القرآن على عهد النبى ﷺ بالمميزات الآتية :

١ ـ أنه لم يكن مجموعا فى مصحف واحد ، بل كان مفرقا فى الرقاع واللخاف والعسب والأكتاف .

٢ ـ أنه لم يكن مرتب السور والآيات ، لأنه كتب أولا بأول على حسب نزوله ، وترتيب القرآن المعروف لنا ليس على حسب النزول بإجماع . نعم ثبت أن رسول الله ﷺ كان إذا نزلت عليه آية أمر من يكتب له الوحى أن يضعها فى موضع كذا من سورة كذا ، ويظهر لنا أن المراد من هذا هو اعلامهم بمكان الآية من سورتها .

٣ ـ أنه كان مكتوبا بالأحرف السبعة التى نزل عليها .

٤ ـ أن بعض من ـ كتب ـ لنفسه من الصحابة ـ كتب بعض الآيات التى نسخت تلاوتها وأبقاها كما هى حيث لم يبلغه الناسخ .

* * *

● **السبب فى عدم جمع القرآن مرتبا فى مصحف واحد على عهد النبى ﷺ :**

والسبب فى عدم جمع القرآن الكريم مرتبا فى مصحف واحد على عهد النبى ﷺ ، هو أن النبى ﷺ كان يترقب دائما وإلى أن مات نزول شيء من القرآن عليه ، فلو أنه رُتِبَ وجُمِعَ أولا بأول لأدى ذلك إلى كثرة التبديل ، ولاستمر عليه الصلاة والسلام يرتّب ويعدل كلما نزلت عليه آية ، وفى هذا من المشقة ما فيه ثم هل يعقل أن يتم ترتيب بين أجزاء الشيء الواحد وهى لم تظهر بعد كلها الى حيز الوجود ؟ .

* * *

(٣) الحجر : ٩

ثانيا ـ جمع القرآن على عهد أبي بكر رضي الله عنه :

علمت أن القرآن الكريم كتب على عهد رسول الله ﷺ ، وأنه كان مفرقا غير مجموع فى مصحف واحد ، ولقد بقى القرآن على هذه الحال الى أن كانت خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، وفيها حدث ما دعا الى جمع القرآن من جديد بين دفتى مصحف واحد .

● السبب الذى دعا إلى جمع القرآن فى عهد أبى بكر رضى الله عنه :

والسبب الذى دعا إلى جمع القرآن فى عهد أبى بكر رضى الله عنه : هو أنه لما استحر القتل بقراء القرآن يوم اليمامة ، وقتل منهم ـ على ما قيل ـ سبعمائة ، خاف عمر رضى الله عنه أن يضيع شيء من القرآن بموت حفظته ، فأشار على أبى بكر رضى الله عنه بجمعه فوافقه بعد مراجعة وتردد ، وتم الجمع على يد زيد بن ثابت رضى الله عنه ، يدلنا على هذا ما رواه البخارى عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر ، فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه ، وإنى أرى أن تجمع القرآن ، قال أبو بكر : فقلت لعمر : كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ فقال : هو والله خير ، فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله لذلك صدرى ، ورأيت الذى رأى عمر ، قال زيد : وعنده عمر جالس لا يتكلم ، فقال لى أبو بكر : انك رجل شاب عاقل ولا نتهمك ، كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه ـ فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرنى به من جمع القرآن ـ قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ فقال أبو بكر : هو خير ، فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ، فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع ، والأكتاف ، والعسب ، وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدهما مع غيره « لقد جاءكم رسول من أنفسكم .... »[٤] الى آخر السورة ، فكانت الصحف التى جمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة .

مما تقدم يتضح لنا أن الجمع الذى تم على يد زيد بن ثابت فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، إنما هو جمع ما كتب وكان مفرقا فى حياة النبى ﷺ ثم

---

(٤) التوبة : ١٢٨

نسخه مجموعا بعضه الى بعض في مصحف واحد ، وهذا العمل أشبه ما يكون بعمل من وجد كتابا مفرق الأوراق في بيت، فجمع الأوراق بعضها الى بعض وربطها بخيط .

● مميزات جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه :

ويمتاز جمع القرآن في عهد أبي بكر بالمميزات الآتية :

١ ـ أنه اقتصر على ما ثبتت قرآنيته ولم تنسخ تلاوته .

٢ ـ أنه جمع بين دفتي مصحف واحد .

٣ ـ أنه جمع مرتب الآيات دون السور .

* * *

ثالثا ـ جمع القرآن على عهد عثمان رضي الله عنه :

بقي القرآن على الحالة التي جمع عليها في عهد أبي بكر رضي الله عنه مدة خلافة عمر وصدرا من خلافة عثمان رضي الله عنهما ، وفي خلافة عثمان حدث ما دعاه ـ رضي الله عنه ـ الى جمع القرآن الكريم من جديد .

● السبب الذي دعا الى جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه :

والسبب الذي من أجله جمع عثمان رضي الله عنه القرآن الكريم هو أن الصحابة رضوان الله عليهم تفرقوا في الأمصار ، وعلّم كل منهم أهل المصر الذي استقر فيه القرآن على الوجه الذي حفظه من رسول الله ﷺ ، وترتب على ذلك اختلاف أهل الأمصار في قراءة القرآن تبعا لاختلاف قراءة معلميهم من الصحابة ، واشتد الأمر في ذلك وعظم اختلافهم وتشبث كل بقراءته مما كان يرشح الفتنة بين بعض المسلمين ، كما وقع ذلك بين أهل الشام وأهل العراق في غزوة أرمينية فقد روى البخاري عن أنس رضي الله عنه : أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين : أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى حفصة : أن أرسلي الينا بالمصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها اليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت ، وعبدالله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبدالرحمن ابن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنه إنما نزل بلسانهم ، ففعلوا حتى اذا نسخوا الصحف في المصاحف

رد عثمان رضى الله عنه الصحف إلى حفصه . وأرسل الى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق قال زيد : فقدت آية من سورة الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الانصارى « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . . »[5] فألحقناها بسورتها من المصحف .

وقد ورد عن ابن شهاب أنهم اختلفوا يومئذ فى التابوت ، فقال زيد : التابوه وقال ابن الزبير وسعيد بن العاص : التابوت ، فرفع اختلافهم الى عثمان رضى الله عنه فقال : اكتبوه بالتاء ، فانه نزل بلسان قريش .

● الرد على من أنكر على عثمان جمعه للقرآن على حرف واحد واحراق ما عدا ذلك :

أنكر بعض الناس على عثمان رضى الله عنه جمع الناس على مصحف واحد واحراقه ما عداه ، والحق أن هذا انكار ليس فى محله . فعثمان رضى الله عنه كان يخشى الفتنة على المسلمين ، بسبب اختلافهم فى وجوه القراءة ، اختلافا لم يسبق له نظير فى عهد أبى بكر وعمر رضى الله عنهما حتى كاد يكفر بعضهم بعضا ، ولقد كان من فضل الله أن وفق عثمان رضى الله عنه لجمع القرآن الكريم على حرف واحد جمع الناس على القراءة به ، فرفع بذلك الاختلاف وجمع الكلمة ، ورحم الله به الأمة .

هذا ، ولم يعرف عن عثمان أنه استبد بهذا العمل ، بل ثبت بيقين أنه استشار الصحابة فأقروه على رأيه ورضوا فعله ، وعد ذلك من مناقبه العظيمة وآثاره الخالدة ، روى أبو بكر الأنبارى ـ فى كتاب الرد على من خالف مصحف عثمان ـ عن سويد بن غفلة قال : « سمعت على بن أبى طالب كرم الله وجهه يقول : يا معشر الناس ، اتقوا الله ، واياكم والغلو فى عثمان وقولكم حرّاق مصاحف ، فوالله ما حرقها الا عن ملأ منا أصحاب رسول الله ﷺ » . وعن عمرو بن سعيد قال : قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : لو كنت الوالى وقت عثمان لفعلت فى المصاحف مثل الذى فعل عثمان » .

● مميزات جمع القرآن فى عهد عثمان رضى الله عنه :

يمتاز جمع القرآن فى عهد عثمان رضى الله عنه بالمميزات الآتية :

١ ـ الاقتصار على حرف واحد ، هو حرف قريش .

---

(٥) الأحزاب : ٢٣

٢ ـ الاقتصار على ما تواتر كونه قرآنا وعلم أنه استقر فى العرضة الأخيرة .
٣ ـ جمعه مرتب الآيات والسور على النحو الذى هو عليه الآن .

● **المصاحف التى كتبت فى عهد عثمان رضى الله عنه :**

المصاحف جمع مصحف ، بضم الميم ، من أصحفه أى جمع فيه الصحف ، والصحف جمع صحيفة ، وهى قطعة من جلد أو ورق يكتب عليها ، روى أن أبا بكر رضى الله عنه استشار الناس بعد جمع القرآن فسماه مصحفا ، فصار علما على ما جمع فيه القرآن كله .

وقد اختلف فى عدد المصاحف التى كتبت فى عهد عثمان رضى الله عنه ووجه بها الى الأمصار ، فقيل ـ وهو الذى صوبه ابن عاشر فى شرح الاعلان ـ انها ستة : المكى ، والشامى ، والبصرى ، والكوفى ، والمدنى العام ، والمدنى الخاص الذى احتفظ به عثمان لنفسه ، وهو المسمى بالامام . وقيل : انها ثمانية : خمسة متفق عليها ، وهى : الكوفى ، والبصرى ، والشامى ، والمدنى العام ، والمدنى الخاص . وثلاث مختلف فيها ، وهى : المكى ، ومصحف البحرين ، ومصحف اليمن . وقيل : إنه وجه مصحفا إلى مصر .

* * *

ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره

ورد لفظ الآية فى اللغة على معان مختلفة ، منها : الآية بمعنى العلامة ، كما فى قوله تعالى « إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم »[1] أى علامة ملكه .

ومنها : الآية بمعنى العبرة والعظة ، كما فى قوله تعالى « إن فى ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين »[2] أى لعبرة وعظة .

ومنها : الآية بمعنى الدليل ، كما فى قوله تعالى « ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة »[3] أى ومن دلائل قدرته .

والآية فى اصطلاح العلماء ، طائفة من القرآن الكريم ذات مبدأ ومقطع ، مندرجة فى سورة ، وآخرها يسمى فاصلة .

ولا طريق لمعرفة آيات القرآن الكريم الا بتوقيف من الشارع ، وليس للاجتهاد دخل فى معرفة شىء من ذلك .

● عدد آيات القرآن الكريم : الإجماع على أن عدد آيات القرآن لا تقل عن ستة آلاف آية ، وما فوق ذلك مختلف فيه ، ففى أحد قولى المدنيين : أن عدد آيات القرآن ستة آلاف فقط ، وفى قول ثان لهم : ٦٢١٤ آية ، وقال البصريون : ٦٢٠٤ ، وقال المكيون : ٦٢١٩ ، وقال الشاميون : ٦٢٢٥ ، وقال الكوفيون : ٦٢٣٦ آية .

والسبب الذى من أجله وقع الاختلاف فى عدد الآيات ، هو أن رسول الله ﷺ كان يقف على رؤوس الآيات ليعلم أصحابه أن الآية تنتهى حيث وقف ، فاذا ما قرأ بعد ذلك ربما وصل بعض الآيات ببعضها الآخر لتمام المعنى فيظن بعض من سمعه حينئذ أن الآيتين آية واحدة .

***

● ترتيب آيات القرآن الكريم :

الاجماع على أن ترتيب آيات القرآن الكريم على النحو الذى نعرفه ثابت

---

(١) البقرة : ٢٤٨ (٢) الشعراء : ٨ وأيات أخرى بعدها .

(٣) الشورى : ٢٩

بتوقيف من النبى ﷺ ، وقد قامت على ذلك أدلة كثيرة ، منها :

١ - ما ثبت من أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ القرآن على ترتيبه المعروف .

٢ - ما أخرجه البخرى عن ابن الزبير قال : قلت لعثمان « **والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج** »(٤) قد نسختها الآية الأخرى ، فلم تكتبها أو تدعها ؟ - يريد لم نكتبها وقد عرفت أنها منسوخة ، أو لم تدعها ، أى تتركها مكتوبة وهى منسوخة ؟ - قال : يا ابن أخى لا أغير شيئا منه من مكانه .

٣ - ما أخرجه الإمام أحمد عن عثمان بن أبى العاص ، قال : كنت جالسا عند رسول الله ﷺ ، اذ شخص ببصره ، ثم صوبه ثم قال : أتانى جبريل فأمرنى أن أضع هذه الآية هذا الوضع من السورة « **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى** . . . »الى آخرها(٥) .

٤ - ما رواه مسلم عن عمر رضى الله عنه قال : ما سألت النبى ﷺ عن شىء أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن باصبعه فى صدرى وقال : « تكفيك آية الصيف التى فى آخر النساء » .

٥ - ما رواه البخارى عن أبى مسعود عقبة بن عامر البدرى قال : قال النبى ﷺ : « من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه » .
والآيتان هما : « **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه** . . . »(٦) إلى آخر السورة .

* * *

● معنى السـورة :

السورة هى آيات جمعت وقرنت بعضها الى بعض حتى تمت وكملت ، وبلغت فى الطول المبلغ الذى أراده الله تعالى ، ثم فصل بينها وبين سورة أخرى « بسم الله الرحمن الرحيم » .

والسورة لا تكون الا معروفة المبدأ والنهاية ، وهى مشتقة من سور المدينة ، لأنها تحيط بآياتها كما يحيط سور المدينة بأبنيتها .

ومعرفة سور القرآن كلها بتوقيف من الشارع ولا سبيل للاجتهاد فى معرفة شىء من ذلك ، وعدد سور القرآن ١١٤ سورة .

* * *

(٤) البقرة : ٢٤٠ (٥) النحل : ٩٠
(٦) البقرة : ٢٨٥

● **ترتيب سور القرآن** : اختلف العلماء فى ترتيب سور القرآن على ما هو عليه الآن على ثلاثة أقوال :

القول الأول : وهو ما ذهب اليه الجمهور : أن ترتيب السور كان بتوقيف من النبى ﷺ . فلم توضع سورة فى مكانها الذى هى فيه الا بأمر النبى ﷺ وتعليمه ، أو برمزه على حسب ما سمعوا من تلاوته .

وقد استدل الجمهور على ما ذهبوا اليه بأدلة كثيرة :

منها : أن الصحابة أجمعوا على المصحف الذى كتب فى عهد عثمان ، ولم يخالف منهم أحد حتى من كان منهم عنده مصحف لنفسه على غير ترتيب مصحف عثمان ، فلو لم يكن هذا الترتيب الذى جرى عليه مصحف عثمان بتوقيف من الشارع لحصل من أصحاب المصاحف المرتبة على غير ترتيبه اعتراض عليه وتمسك بما فى أيديهم ، ولكن ما حدث من عدولهم عن مصاحفهم وترتيبها ، بل واحراقها دليل قوى على أن الأمر ليس للاجتهاد فيه مجال .

ومن الأدلة : ما رواه الإمام أحمد وأبو داوود عن حذيفة الثقفى قال : كنت فى الوفد الذين أسلموا من ثقيف . . الحديث ، وفيه « فقال لنا رسول الله ﷺ : طرأ على حزب من القرآن فأردت ألا أخرج حتى أقضيه ، فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ . قلنا : كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا : نحزبه ثلاث سور وخمس سور ، وسبع سور ، وتسع سور ، واحدى عشرة ، وثلاث عشرة ، وحزب المفصّل من ق حتى نختم » ، فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو عليه الآن كان على عهد النبى ﷺ .

ومن الأدلة أيضا : أن الحواميم رتبت ولاء ، أى متتابعة ، بخلاف المسبحات فانها لم ترتب ولاء بعضها إثر بعض ، بل فصل بين سورها بسورة المجادلة والممتحنة والمنافقون ، كما أن سورتى طسم الشعراء ، وطسم القصص ، فصل بينهما بسورة النمل مع أنها أقصر من كل منهما ، ولو كان الترتيب باجتهاد لما حصل الفصل بين السور المتماثلات فى الافتتاح ، المتقاربات فى الطول أو القصر بغيرها من السور .

قال أبو بكر الأنبارى : « أنزل الله القرآن كله الى سماء الدنيا ، ثم فرقه فى بضع وعشرين سنة ، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث ، والآية جوابا لمستخبر ، ويقف جبريل النبى ﷺ على موضع السورة والآيات ، فاتساق

السور كاتساق الآيات والحروف ، كله من النبى ﷺ ، فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن » .

وقال ابن الحصار : « ترتيب السور ووضع الآيات فى مواضعها انما كان بالوحى » .

القول الثانى : أن ترتيب السور على ما هو عليه الآن تم باجتهاد من الصحابة ، واستدل من ذهب الى هذا القول باختلاف ترتيب مصاحف الصحابة قبل جمع المصحف على عهد عثمان ، فلو كان ترتيب السور بتوقيف من النبى ﷺ ما اختلفت مصاحفهم فى ترتيب السور ، فمثلا مصحف أُبَىّ كان مبدوء بسورة الحمد ، ثم البقرة ، ثم النساء ثم آل عمران ثم الأنعام ، ومصحف ابن مسعود كان مبدوء بسورة البقرة ، ثم النساء ، ثم آل عمران ، ثم الأنعام ، ومصحف على كرم الله وجهه كان مبدوء بسورة اقرأ ، ثم المدثر ، ثم ن ، ثم المزمل ، ثم تبت ، ثم التكوير . . . . وهكذا ، فهذا الاختلاف دليل على أن ترتيب السور كان من اجتهاد لا عن توقيف .

ولقد أجاب أصحاب القول الأول عن هذا الدليل ، بأن اختلاف الصحابة فى ترتيب مصاحفهم ليس دليلا على أن ترتيب السور عن اجتهاد وليس عن توقيف ، لأن مصاحفهم لم يراع فيها أن تكون مصاحف تلاوة ، بل كانت مصاحف علم وتأويل ، بدليل أن منهم من كتب فى مصحفه منسوخ التلاوة ، ومنهم من كتب بعض الأدعية المأثورة ، ومنهم من كتب بعض تأويلات لبعض القرآن ، لذا لم تكن هذه المصاحف حجة فى اثبات القرآن . فكما لم يعول عليها فى زيادة أو نقص لم يعول عليها فى ترتيب السور .

القول الثالث : أن ترتيب بعض السور كان بتوقيف من النبى ﷺ ، وبعضها كان باجتهاد من الصحابة ، وقد مال ابن عطية الأندلسى الى هذا الرأى فقال : « ان كثيرا من السور قد علم ترتيبها فى حياة النبى ﷺ كالسبع الطوال ، والحواميم ، والمفصّل ، وأن ما سوى ذلك يمكن أن يكون فوض الأمر فيه الى الأمة بعده » .

وقد استدل أصحاب هذا القول بما رواه الامام أحمد والترمذى وغيرهما عن ابن عباس قال : قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم الى الأنفال وهى من المثانى ، والى براءة وهى من المئين ، فقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا بينهما سطر « بسم الله الرحمن الرحيم » ووضعتموها فى السبع الطوال ؟ فقال عثمان رضى الله عنه : كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السور ذوات العدد ، فكان اذا أُنزل عليه

شيء دعا بعض من يكتب فيقول : ضعوا هذه الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، فظننت أنها منها ، فقُبِضَ رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر « بسم الله الرحمن الرحيم » ووضعتهما فى السبع الطوال - فهذا يدل على أن ترتيب الأنفال مع التوبة كان باجتهاد لعدم البيان من الرسول ﷺ . وقد رد الجمهور - أصحاب القول الأول - هذا الحديث بأنه حديث غريب لا يعرف إلا من رواية يزيد الفارسى عن ابن عباس ، ويزيد هذا مجهول الحال ، فلا يصح الاعتماد على حديثه .

* * *

مصادر التفسير والعلوم التى يحتاج إليها المفسر

المصادر التى يجب على المفسر أن يرجع اليها عند شرحه للقرآن الكريم حتى يكون تفسيره جائزا ومقبولا هى ما يلى :

أولا : الرجوع الى القرآن نفسه ، وذلك بأن ينظر فى القرآن نظرة فاحص مدقق ، ويجمع الآيات التى فى موضوع واحد ، ثم يقارن بعضها ببعضها الآخر ، فان من الآيات ما أجمل فى مكان وفسر فى مكان آخر ، ومنها ما أوجز فى موضع وبسط فى موضع آخر ، فيحمل المجمل على المفسر ، ويشرح ما جاء موجزا بما جاء مسهبا مفصلا ، وهذا هو ما يسمونه تفسير القرآن بالقرآن ، فان عدل المفسر عن هذا وفسر برأيه فقد أخطأ وقال برأيه المذموم .

ثانيا : النقل عن الرسول ﷺ مع الاحتراز عن الضعيف والموضوع فانه كثير ، فان وقع له تفسير صحيح عن رسول الله ﷺ فليس له أن يعدل عنه ، ويقول برأيه ، لأن الرسول مؤيد من ربه ، وموكول اليه أن يبين للناس ما نزل اليهم ، فمن ترك ما صح عن النبى ﷺ فى التفسير إلى رأيه فهو قائل بالرأى المذموم .

ثالثا : الأخذ بما صح عن الصحابة فى التفسير ، ولا يغتر بكل ما ينسب لهم من ذلك لأن فى التفسير كثيرا مما وضع على الصحابة كذبا واختلاقا ، فان وقع على قول صحيح لصحابى فى التفسير ، فليس له أن يهجره ويقول برأيه ، لأن الصحابة أعلم بكتاب الله وأدرى بأسرار التنزيل ، لما شاهدوه من القرائن والأحوال ، ولما اختصوا به من الفهم التام والعلم الصحيح لا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالخلفاء الراشدين وأبى وابن مسعود وابن عباس وغيرهم .

رابعا : الأخذ بمطلق اللغة ، لأن القرآن نزل بلسان عربى مبين ، فعلى المفسر أن يحترز من صرف الآية عن ظاهرها الى معان خارجة محتملة ، يدل عليها القليل من كلام العرب ، ولا توجد غالبا إلا فى الشعر ونحوه ، ويكون المتبادر خلافها ، روى عن الامام مالك رضى الله عنه أنه قال : « لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله الا جعلته نكالا » .

خامسا : التفسير بالمقتضى من معنى الكلام والمقتضب من قوة الشرع ، وهذا هو الذى دعا به النبى ﷺ لابن عباس حيث قال : « اللهم فقهه فى

الدين وعلمه التأويل » والذى عناه على رضى الله عنه بقوله ـ حين سئل : هل عندكم عن رسول الله ﷺ شىء بعد القرآن ؟ ـ قال : « لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة الا فهم يؤتيه الله عز وجل رجلا فى القرآن » .

* * *

● العلوم التى يحتاج اليها المفسر :

اشترط العلماء فى المفسر الذى يفسر القرآن برأيه دون أن يقتصر على الوقوف عند حدود المأثور أن يكون ملما بجملة من العلوم التى يستطيع بواسطتها أن يفسر القرآن تفسيرا عقليا مقبولا ، وجعلوا هذه العلوم بمثابة أدوات تعصم المفسر من الوقوع فى الخطأ ، وتحميه من القول على الله بغير علم ، واليك هذه العلوم :

١ ـ علم اللغة : فبه يمكن شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع ، قال مجاهد : « لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم فى كتاب الله اذا لم يكن عالما بلغات العرب » .

٢ ـ علم النحو : لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب فلابد من اعتباره .

٣ ـ علم الصرف : وبواسطته تعرف الأبنية والصيغ ، حكى السيوطى عن الزمخشرى أنه قال : « من بدع التفاسير قول من قال : إن الإمام فى قوله تعالى: « يوم ندعوا كل أناس بإمامهم »[1] جمع أم ، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم ، قال : وهذا غلط أوجبه جهله بالتصريف ، فإن أمّاً لا يجمع على إمام .

٤ ـ الاشتقاق : لأن الاسم اذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف المعنى باختلافهما كالمسيح مثلا هل هو من السياحة أو من المسح ؟

٥ ـ علوم البلاغة الثلاثة « المعانى ، والبيان ، والبديع » : وهى من أهم ما يحتاج اليه المفسر ، لأنه لابد من مراعاة ما يقتضيه الاعجاز وذلك لا يدرك إلا بهذه العلوم .

٦ ـ علم القراءات : إذ بمعرفتها يمكن ترجيح بعض الوجوه المحتملة على بعض .

٧ ـ علم الكلام : وبه يستطيع المفسر أن يستدل على ما يجب فى حقه تعالى وما يجوز وما يستحيل وأن ينظر فى الآيات المتعلقة بالنبوات والمعاد وما الى ذلك

---

(١) الإسراء : ٧١

نظرة صائبة ولولا ذلك لوقع المفسر فى ورطات .

٨ - **علم أصول الفقه** : إذ به يعرف كيف يستنبط الأحكام من الأيات ويستدل عليها ، ويعرف الإجمال والتبيين ، والتعميم والتخصيص ، والإطلاق والتقييد ، وكل ما سوى ذلك مما يرجع الى هذا العلم .

٩ - **علم أسباب النزول** : إذ أن معرفة سبب النزول تعين على فهم المراد من الآية .

١٠ - **علم القصص** : لأن معرفة القصة تفصيلا يعين على توضيح ما أجمل منها فى القرآن .

١١ - علم الناسخ والمنسوخ : فمن لا يعلم ناسخ القرآن ومنسوخه ربما أفتى بحكم منسوخ فيقع فى الضلال ، والإضلال .

١٢ - **الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم من القرآن** : ليستعين بها على توضيح ما يشكل عليه .

١٣ - علم الموهبة : وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم ، واليه الاشارة بقوله تعالى « **واتقوا الله، ويعلمكم الله** »(٢) وبقوله عليه الصلاة والسلام « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .

* * *

---

(٢) البقرة : ٢٨٢

الإسرائيليات ، ومدى الصلة بينها وبين القرآن الكريم

● تمهيـد :

لفظ الإسرائيليات وان كان يدل بظاهره على اللون اليهودى للتفسير ، وما كان للثقافة اليهودية من أثر ظاهر فيه ، إلا أنا نريد به ما هو أوسع من ذلك وأشمل فنريد به ما يعم اللون اليهودى ، واللون النصرانى للتفسير ، وما تأثر به التفسير من الثقافتين اليهودية والنصرانية .

وإنما أطلقنا على جميع ذلك لفظ الإسرائيليات من باب التغليب للجانب اليهودى على الجانب النصرانى ، فإن الجانب اليهودى هو الذى اشتهر أمره فكثر النقل عنه ، وذلك لكثرة أهله ، وظهور أمرهم ، وشدة اختلاطهم بالمسلمين من مبدأ ظهور الاسلام الى أن بسط رواقه على كثير من بلاد العالم ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

كان لليهود ثقافة دينية ، وكان للنصارى ثقافة دينية كذلك ، وكلتا الثقافتين كان لهما أثر فى التفسير الى حد ما .

أما اليهود فان ثقافتهم تعتمد أول ما تعتمد على التوراة ، وكان لهم بجانبها سنن ونصائح دونت وعرفت باسم التلمود ، ووجد بجوار ذلك كثير من الأدب اليهودى والقصص والتاريخ والتشريع والأساطير .

وأما النصارى فكانت ثقافتهم تعتمد ـ فى الغالب الأهم ـ على الإنجيل وما كتب عليه من شروح كانت فيما بعد منبعا من منابع الثقافة النصرانية ، كما وجد بجوار ذلك قصص وأخبار وتعاليم زعم النصارى أنهم تلقوها عن عيسى عليه السلام .

واذا نحن أجلنا النظر فى التوراة والانجيل نجد أنهما قد اشتملا على كثير مما اشتمل عليه القرآن الكريم ، وبخاصة ما كان له تعلق بقصص الأنبياء عليهم السلام وذلك على اختلاف بينهما فى الاجمال والتفصيل ، فالقرآن اذا عرض لقصة من قصص الأنبياء ـ مثلا ـ فانه ينحو فيها ناحية يخالف بها منحى التوراة أو الإنجيل ، فتراه يقتصر على موضع العظة ، ولا يتعرض لتفصيل جزئيات المسائل ، فلا يذكر تاريخ الوقائع ، ولا أسماء البلدان التى حصلت فيها ، كما أنه لا يذكر ـ فى الغالب ـ أسماء الأشخاص الذين جرت على أيديهم بعض

الحوادث ، ولا يدخل فى تفاصيل الجزئيات بل يتخير من ذلك ما يمس جوهر الموضوع ويتعلق بموضع العبرة .

واذا نحن تتبعنا هذه الموضوعات التى اتفق فى ذكرها القرآن والتوراة ، أو القرآن والإنجيل لوجدنا التوراة والإنجيل قد عرضا لتفصيل الحوادث وذكر جزئياتها ، وأسماء من لهم صلة بها ، وموطن وقوعها ، وغير ذلك مما طواه القرآن ولم يتطرق اليه . . فهل يجد المسلمون هذا الإيجاز فى القرآن ، ويجدون بجانب ذلك تفصيل هذا الإيجاز فى التوراة أو فى الإنجيل أو فيما يتصل بهما من شروح ثم لا يقتبسون منها بقدر ما يرون أنه شارح لهذا الإيجاز وموضح لما فيه من غموض ؟ . . لا ، بل لابد لهم من الاقتباس ، وشرح ما أوجز فى القرآن بما فصل فى التوراة أو الإنجيل أو شرحهما . . ولكن على نحو يتضح لك فيما بعد .

* * *

● مبدأ دخول الإسرائيليات فى التفسير وتطوره :

نستطيع أن نقول إن دخول الإسرائيليات فى التفسير أمر يرجع الى عهد الصحابة رضى الله عنهم ، وذلك نظرا لاتفاق القرآن مع التوراة والإنجيل فى ذكر بعض المسائل ، فكان الصحابى اذا مر بقصة من قصص القرآن يجد فى نفسه ميلا الى أن يسأل عن بعض ما طواه القرآن من تفاصيلها ، فلا يجد من يجيبه على سؤاله سوى هؤلاء النفر الذين دخلوا فى الاسلام وحملوا الى أهله ما معهم من ثقافة دينية ، فألقوا اليهم بما ألقوا من الأخبار والقصص الدينى .

غير أن هؤلاء الصحابة لم يسألوا أهل الكتاب عن كل شىء ، ولم يقبلوا منهم كل شىء ، بل كانوا يسألونهم عن أشياء لا تعدو أن تكون توضيحا للقصة ، وبيانا لما أجمله القرآن منها ، مع توقفهم فيما يحتمل الصدق والكذب ، لعدم حكمهم عليه بواحد من الأمرين ، امتثالا لقول النبى ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا : « آمنا بالله وما أنزل الينا . . » الآية(١) .

كما أنهم لم يسألوهم عن شىء مما يتعلق بالعقيدة أو يتصل بالاحكام الشرعية اللهم الا اذا كان على سبيل الاستشهاد والتقوية لما جاء به القرآن الكريم .

كذلك كانوا لا يعدلون عما ثبت عن الرسول ﷺ من ذلك الى سؤال أهل الكتاب ، لأنه اذا ثبت الشىء عن الرسول ﷺ فليس لهم أن يعدلوا عنه الى

---

(١) البقرة : ١٣٦

عيره ، كما كانوا لا يسألون عن الأشياء التى يشبه ان يكون السؤال عنها نوعا من اللهو والعبث ، كالسؤال عن لون كلب أهل الكهف ، ومقدار سفينة نوح عليه السلام ونوع خشبها ، ونحو ذلك مما لا يعود على الانسان من معرفته فائدة .

وكان الصحابة لا يصدقون اليهود فيما يخالف الشريعة الاسلامية ، بل بلغ بهم الأمر الى أنهم كانوا اذا سألوا أهل الكتاب عن شيء فأجابوا عنه خطأ ردوا عليهم خطأهم وبينوا لهم وجه الصواب فيه .

ومهما يكن من شيء فإن الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ لم يخرجوا عن دائرة الجواز التى حدها لهم رسول الله ﷺ ، وعما فهموه من الإباحة فى قوله عليه الصلاة والسلام : « بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » . كما أنهم لم يخالفوا قول رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا بنى إسرائيل ولا تكذبوهم ، وقولوا : « **آمنا بالله وما أنزل إلينا . . .** » الآية .

أما التابعون ، فقد توسعوا فى الأخذ عن أهل الكتاب ، فكثرت على عهدهم الروايات الإسرائيلية فى التفسير ، ويرجع ذلك لكثرة من دخل من أهل الكتاب فى الاسلام ، وميل نفوس القوم لسماع التفاصيل عما يشير اليه القرآن من أحداث يهودية أو نصرانية ، فظهرت فى هذا العهد جماعة من المفسرين أرادوا أن يسدوا هذه الثغرات القائمة فى التفسير بما هو موجود عند اليهود والنصارى فحشوا التفسير بكثير من القصص المتناقض ، ومن هؤلاء مقاتل بن سليمان المتوفى سنة ١٥٠ هـ الذى نسبه أبو حاتم الى أنه استقى علومه بالقرآن من اليهود والنصارى ، وجعلها موافقة لما فى كتبهم .

ثم جاء من بعد عصر التابعين من عظم شغفه بالإسرائيليات وأفرط فى الأخذ منها الى درجة جعلتهم لا يردون قولا ، ولا يحجمون عن أن يلصقوا بالقرآن كل ما يروى لهم وإن كان لا يتصوره العقل . . . واستمر هذا الشغف بالإسرائيليات والولع بنقل هذه الأخبار حتى أصبح الكثير منها نوعا من الخرافة . . . الى أن جاء دور التدوين للتفسير فوجد من المفسرين من حشوا كتبهم بهذا القصص الإسرائيلى الذى كاد يصد الناس عن النظر فيها والركون إليها .

* * *

● **أثر الإسرائيليات فى التفسير :**

ولقد كان لهذه الإسرائيليات التى أخذها المفسرون عن أهل الكتاب وشرحوا بها كتاب الله تعالى أثر سيىء فى التفسير ، وذلك لأن الأمر لم يقف على ما كان عليه فى عهد الصحابة ، بل زادوا فى ذلك فرووا كل ما قيل لهم إن صدقا وإن كذبا ، بل ودخل هذا النوع من التفسير كثير من القصص الخيالى المخترع ، مما جعل الناظر فى كتب التفسير التى هذا شأنها يكاد لا يقبل شيئاً مما جاء فيها ، لاعتقاده أن الكل من واد واحد .

وفى الحق أن المكثرين من هذه الإسرائيليات وضعوا الشوك فى طريق المشتغلين بالتفسير ، وذهبوا بكثير من الأخبار الصحيحة بجانب ما رووه من قصص مكذوب وأخبار لا تصح ، كما أن نسبة هذه الإسرائيليات التى لا يكاد يصح شيء منها الى بعض من أسلم من أهل الكتاب جعلت بعض الناس ينظر اليهم بعين الاتهام والريبة .

* * *

● **قيمة ما يروى من الإسرائيليات :**

تنقسم الأخبار الإسرائيلية الى أقسام ثلاثة وهى ما يأتى :

القسم الأول : ما يعلم صحته بأن نقل مثله عن النبى ﷺ نقلا صحيحا ، وذلك كتعيين اسم صاحب موسى عليه السلام بأنه الخضر ، فقد جاء هذا الاسم صريحا على لسان النبى ﷺ كما عند البخارى . وهذا القسم صحيح مقبول .

القسم الثانى : ما يعلم كذبه بأن يناقض ما عرفناه من شرعنا ، أو كان لا يتفق مع العقل . وهذا القسم لا يصح قبوله ولا روايته .

القسم الثالث : ما هو مسكوت عنه ، لا هو من قبيل الأول ، ولا هو من قبيل الثانى . وهذا القسم نتوقف فيه فلا نصدقه ولا نكذبه ، لأنه ربما كان كذبا فنقع فى الحرج لو صدقناه ، وربما كان صدقا فنقع فى الحرج لو كذبناه ، وتجوز روايته لقوله عليه الصلاة والسلام : « حدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج » وهذا محمول على ما لم يُعلم كذبه ، لأنه لا يعقل أن يبيح لنا الرسول ﷺ رواية المكذوب .

ثم اذا جاء شيء من هذا القبيل ـ أعنى ما سكت عنه الشرع ولم يكن فيه ما يؤيده أو يفنده ـ عن أحد من الصحابة بطريق صحيح ، فان كان قد جزم به فهو كالقسم الأول يُقبل ولا يُرد ، لأنه لا يعقل أن يكون الصحابى قد أخذه

عن أهل الكتاب بعد ما علم من نهى الرسول ﷺ عن تصديقهم . وان كان لم يجزم به فالنفس أسكن الى قبوله ، لأن احتمال أن يكون الصحابي قد سمعه من النبى ﷺ أو ممن سمعه منه أقوى من احتمال السماع من أهل الكتاب لا سيما وأن أخذ الصحابة عن أهل الكتاب كان قليلا بالنسبة لغيرهم من التابعين ومن يليهم .

أما إن جاء شيء من هذا عن بعض التابعين فهو مما يُتوقف فيه ولا يُحكم عليه بصدق ولا بكذب ، وذلك لقوة احتمال السماع من أهل الكتاب ، لما عرفوا به من كثرة الأخذ عنهم وبُعد احتمال كونه مما سُمع من رسول الله ﷺ ، وهذا اذا لم يتفق أهل الرواية من علماء التفسير على ذلك ، أما ان اتفقوا عليه ، فانه يكون أبعد من أن يكون مسموعا من أهل الكتاب ، وحينئذ تسكن النفس الى قبوله والأخذ به .

***

● موقف المفسر إزاء الروايات الإسرائيلية :

علمنا أن كثرة النقل عن أهل الكتاب بدون تفرقة بين الصحيح والعليل دسيسة دخلت فى ديننا واستفحل خطرها ، كما علمنا أن قول الرسول ﷺ « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم » قاعدة مقررة لا يصح العدول عنها بأى حال من الأحوال ، وبعد هذا وذاك نقول :

إنه يجب على المفسر أن يكون يقظا الى أبعد حدود اليقظة ، ناقدا الى نهاية ما يصل اليه النقاد من دقة وروية ، حتى يستطيع أن يستخلص من هذا الهشيم المركوم من الإسرائيليات ما يناسب روح القرآن ، ويتفق مع العقل والنقل ، كما يجب عليه أن لا يرتكب النقل عن أهل الكتاب اذا كان فى سنة نبينا ﷺ ما يغنيه عن ذلك .

كذلك يجب على المفسر أن يلحظ أن الضرورى يتقدر بقدر الحاجة ، فلا يذكر فى تفسيره شيئا من ذلك الا بقدر ما يقتضيه بيان الإجمال .

واذا اختلف المتقدمون فى شيء من هذا القبيل وكثرت أقوالهم ونقولهم فلا مانع من نقل المفسر لهذه الأقوال جميعا على أن ينبه على الصحيح منها ويبطل الباطل وليس له أن يحكى الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال ، لأن مثل هذا العمل يعد ناقصا لا فائدة فيه ما دام قد خلط الصحيح بالعليل ، ووضع أمام القارىء من الأقوال المختلفة ما يسبب له الحيرة والاضطراب .

على أن من الخير للمفسر أن يعرض كل الاعراض عن هذه الاسرائيليات ، وأن يمسك عما لا طائل تحته مما يعد صارفا عن القرآن ، وشاغلا عن التدبر في حكمه وأحكامه ، ونرى أن هذا أحكم وأسلم .

* * *

● أقطاب الروايات الاسرائيلية :

يتصفح الانسان كتب التفسير بالمأثور ، فلا يلبث أن يلحظ أن غالب ما يروى فيها من اسرائيليات يكاد يدور على أربعة أشخاص هم : عبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ، وهؤلاء الأربعة ، اختلفت أنظار الناس في الحكم عليهم والثقة بهم فمنهم من ارتفع بهم عن حد التهمة ، ومنهم من رماهم بالكذب وعدم التثبت في الرواية ، ولأجل أن تقف على قيمة كل من هؤلاء الأربعة في باب الرواية ـ وبخاصة ما يرجع من ذلك الى ناحية التفسير ـ ارجع الى كتابنا « التفسير والمفسرون » (ص ١٨٢ وما بعدها من الجزء الأول) .

والله تعالى أعلم ..

* * *

خاتمة

حول تفسير القرآن الكريم

- تفسير القرآن الكريم بين الرأى والأثر .
- كتب التفسير القديمة .ومدى ملاءمتها للثقافة المعاصرة .
- أضواء على المحاولات العصرية لتفسير القرآن الكريم .
- طبع القرآن الكريم بالرسم الاملائى .
- محاولات مشبوهة لطبع القرآن الكريم محرفاً .

تفسير القرآن الكريم بين الرأى والأثر

القرآن كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو الحجة البالغة على صدق رسالة محمد ﷺ ، والدستور القويم الذى يكفل للإنسانية خير الدنيا وسعادة الآخرة .

ولقد أيقن المسلمون منذ فجر الاسلام ، أن القرآن الكريم قد حوى الخير كل الخير ، وضم بين ثنايا آياته من الحكم والأحكام ما لو تمسكوا به لكانت لهم القوة التى لا تغلب ، والعزة التى لا تقهر ولا تسلب ، والسيادة التى تعنو لها جباه من تكبروا وأعرضوا عن الله .

أيقن المسلمون بهذا كله ، فحرصوا كل الحرص على معرفة ما يحتويه القران الكريم من هدى وإرشاد ، واهتموا كل الاهتمام بالوقوف على ما ينطوى عليه من عظات وعبر ، ومعارف وأحكام .

وكان النبى ﷺ ، يعرف معانى القرآن كلها جملة وتفصيلا ، لأن الله تعالى ضمن له حفظ القرآن وبيانه بقوله « **إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه** »[١] .

والصحابة رضوان الله عليهم كانوا ـ بحكم كونهم عربا خلصا ـ يصلون بعقولهم ومداركهم إلى معرفة الكثير من معانى القرآن الكريم ، وما كان يتعذر عليهم فهمه وادراكه كانوا يرجعون فيه إلى رسول الله ﷺ ، فلا يلبثون أن يجدوا عنده جواب ما يسألون ، وتجلية ما يستوضحون ، لأن ذلك كان من صلب رسالته . . . إذ أنه مكلف ببيان القرآن كما هو مكلف بتبليغه ، مصداق ذلك قول الله عز وجل : « **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون** »[٢] .

وفى عصر التابعين وما توالى بعده من عصور إلى يومنا هذا ، لم يفتأ المسلمون يثورون القرآن الكريم باحثين عن مضامينه ومعانيه ، مستجلين لأسراره ومراميه ، معتمدين فى ذلك كله على ما ثبت لديهم عن رسول الله ﷺ ، ثم على عقولهم وإجتهادهم ، فتجمع لنا بفضل ذلك من التفسير المأثور والتفسير بالرأى تراث ضخم وثروة هائلة .

---

(١) القيامة : ١٧ ـ ١٩ (٢) النحل : ٤٤

وإذا نحن ذهبنا نستعرض ما حوته المكتبة الإسلامية من كتب فى التفسير ، نجد بعضها يلتزم التفسير المأثور عن الرسول ﷺ . بل وعن الصحابة والتابعين ، ولا يكاد يحيد عن ذلك إلى التفسير بالرأى إلا فى القليل النادر .

ونجد بعضها الآخر ينحو نحو التفسير بالرأى . وهذه سمته الغالبة عليه . وإن كان لا يخلو مع ذلك من تفسير مأثور عن النبى ﷺ . أو عن غيره من الصحابة والتابعين .

ولسنا نشك فى أن كلا من الاتجاهين فى التفسير أمر مقبول ما دام يخضع لقواعد التفسير وشرائطه ، كما لا نشك فى أن كل منهما مساعد للآخر ومكمل له ، وعلى هذا ، فصاحب التفسير بالمأثور لا ينبغى أن يقتصر عليه وحده وإلا كان مقصرا ، لأن المأثور لم يتناول كل معانى القرآن الكريم ، وإنما تناول بعضا منها فقط .

وصاحب التفسير بالرأى ، لا ينبغى أن يجنح إلى الرأى دائما ، فإذا صح لديه حديث يفسر آية من كتاب الله فليس له أن يعدل عنه إلى الرأى والاجتهاد ، لأن الرأى فى مثل هذا الموقف مذموم ومردود على صاحبه .

ولسنا نريد أن نعرض لخلاف العلماء فى جواز التفسير بالرأى وعدم جوازه . فذلك خلاف صورى أو لفظى كما يقولون ، وإنما نريد أن نقول إن التفسير بالمأثور والتفسير بالرأى ، كلاهما مقبول إذا توفرت فيه شروط القبول ، فإن اختلت هذه الشروط أو اختل بعضها ، فقد كل منهما قيمته ، وأصبح التفسير بالمأثور كذبا على رسول الله ﷺ ، أو على من نسب اليه من الصحابة أو التابعين ، كما يصبح التفسير بالرأى تقولا على الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

ولا نريد أن نذكر كل شروط التفسير بالمأثور ، ولا كل شروط التفسير بالرأى ، وإنما نكتفى بذكر أهمها :

أما أهم الشروط لقبول التفسير بالمأثور فهى : أن تصح نسبته الى من نقل عنه ، وأن يروى مقرونا بإسناده إلى رواته فقد يصح الأثر فى نظر ناقله ، ولكنه لا يصح فى نظر غيره إذا ما عرف سنده ونقد رجاله .

وأما أهم الشروط لقبول التفسير بالرأى ، فهى : أن يكون المفسر على دراية تامة بلغة العرب وأساليبهم فى القول ، وأن ينظر إلى النص القرآنى بعين مجردة عن الهوى والغرض ، فإن كان له عقيدة معينة أو مذهب معين فليس له أن يحمل النص القرآنى قسرا على معنى يتفق مع عقيدته أو يتلاءم مع مذهبه .

وقد التزم بعض المفسرين من الفريقين : فريق المفسرين بالمأثور ، وفريق المفسرين بالرأى هذه الشروط ، فجاءت تفاسيرهم خالية من الشوب والفساد ، وتلقاها الناس عنهم بالرضا والقبول .

. . . ولكن كان بجوار هؤلاء - وللأسف - قوم أهملوا هذه الشروط ولم يلتزموا بها ، فجاءت تفاسيرهم مليئة بالأوهام والأباطيل ، ولم تلق لدى عقلاء المسلمين رواجا ولا قبولا . . ومثل هذه الكتب التى أقحم فيها كل دخيل أو غريب : من دسائس أهل الكتاب ، وخرافات القصاص ، وأباطيل أهل البدع والأوهام ، أساءت الى كتاب الله عز وجل وشغلت من فتنوا بها عن التدبر فى آياته والانتفاع بحكمه وعظاته ، وربما أفسدت عقائد البعض منهم !! . .

واذا كان لنا من رجاء ، فهو : أن يتعاون علماء المسلمين على تنقية هذه التفاسير من كل هذا الهشيم المركوم من أباطيل المأثور وشواذ الرأى ، حتى يفهم كتاب الله على صفائه ونقائه ، وبهذا يكونون قد قدموا للاسلام وللمسلمين ولكتاب ربهم أجل عمل وأعظم خدمة .

* * *

● كتب التفسير القديمة ومدى ملاءمتها للثقافة المعاصرة :

مما لا شك فيه أن المكتبة الاسلامية زاخرة بكثير من كتب التفسير التى ألفها من قديم علماء أجلاء : كالطبرى ، والزمخشرى ، والفخر الرازى ، والبيضاوى ، وأبى السعود العمادى . . . وغيرهم ممن لهم فى التفسير مؤلفات لا زالت مراجع هامة لدى المشتغلين بتفسير القرآن الكريم .

غير أن هذه الكتب لا تنهج فى التفسير منهجاً واحداً ، وانما تختلف مناهجها تبعاً لاختلاف ثقافة مؤلفيها ، وتتباين مشاربها تبعا لتباين مشاربهم وميولهم .

وإنا لنلحظ فى وضوح وجلاء : أن كل من برع فى فن من فنون العلم يغلب عليه فى تفسيره الفن الذى برع فيه ، فالنحوى لا هم له إلا الإعراب ، فهو لأدنى مناسبة يستطرد إلى ذكر مسائل النحو وخلافياته ، كالواحدى فى تفسيره البسيط ، وأبى حيان فى تفسيره البحر المحيط .

وصاحب العلوم العقلية ، نراه يعنى فى تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة ، كما نراه يذكر شبههم ويرد عليها ، كالفخر الرازى فى تفسيره « مفاتيح الغيب » .

وصاحب الفقه ، نراه يعنى بتقرير الأدلة للفروع الفقهية والرد على من يخالف مذهبه ، كالجصاص ، والقرطبى .

وصاحب التاريخ ليس له شغل إلا بالقصص وذكر أخبار الغابرين ما صح منها وما لم يصح ، كالثعلبى والخازن .

وصاحب البدع ليس له قصد إلا أن يؤول كلام الله بما يتفق مع مذهبه الفاسد ، كالرمانى من المعتزلة ، وملا محسن الكاشى من الإمامية الإثنى عشرية .

وأرباب التصوف لا هم لهم إلا استخراج المعانى الإشارية من الآيات القرآنية ، كأبى عبد الرحمن السلمى ، والإمام القشيرى .

ولا شك أن ما خلفته لنا المكتبة الاسلامية من هذه التفاسير القديمة على اختلاف مناهجها لا يعدم قيمته العلمية بهذه الاستطرادات الخارجة عن حد التفسير ، ولكنها فى الوقت نفسه تعتبر ـ بسبب هذه الاستطرادات ـ صارفة للإنسان عن النظر فى القرآن والتأمل فى معانيه ومراميه .

ولقد نجد فى هذه الكتب من المباحث ما ينافى الحقائق العلمية الثابتة ، ولا يتلاءم مع ثقافة عصرنا الذى نعيش فيه ، ونستعرض بعض هذه الكتب فنجد فيها الغرائب والأعاجيب .

نرى فى تفسير القرطبى والجلالين وغيرهما تفسير الرعد: بأنه صوت الملك الذى يزجر السحاب ، ويسوقه بمخاريق من نار ، والبرق: بأنه لمعان هذه المخاريق . ويقول الألوسى فى تفسيره : إن هذا هو الذى عليه المعول .

ونرى القرطبى يروى عن ابن عباس وعكرمة والضحاك تفسيراً للفظ (ق) فى قوله تعالى « ق والقرآن المجيد »[٣] فيقول : قاف : جبل محيط بالأرض ، من زمردة خضراء ، اخضرت السماء منه ، وعليه طرفا السماء ، والسماء عليه مقبية ، وما أصاب الناس من زمرد كان مما تساقط من ذلك الجبل .

وفى تفسير ابن جرير الطبرى : أن سفينة نوح كان طولها ألف ذراع ومائتى ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع ، وكانت ثلاث طبقات ، فطبقة فيها الدواب والوحش ، وطبقة فيها الإنس ، وطبقة فيها الطير ، فلما كثرت أرواث الدواب أوحى الله الى نوح : أن اغمز زنب الفيل ، فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث يأكلانه ، ولما وقع الفأر بحبل السفينة يقرضه أوحى الله إلى

---

(٣) سورة ق : ١

نوح أن اضرب بين عيني الأسد ، فضرب بين عينيه فخرج من منخره سنور وسنورة ، فأقبلا على الفأر يأكلانه .

وفى تفسير البغوى قصة غريبة عن عوج بن عنق ذكر فيها : أن طوله كان ثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلث ، وأنه كان يحتجز بالسحاب ويشرب منه ، ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه بعين الشمس ، وأن ماء الطوفان طبق ما على الأرض من جبل وما جاوز ركبتى عوج ، وأنه عاش ثلاثة آلاف سنة حتى أهلكه الله على يد موسى .

. . هذا ـ وغيره كثير فى كتب التفسير ، شىء لا يقبله العقل ولا يتلاءم مع الثقافة المعاصرة ، وهو دسيسة دسها أعداء الاسلام على التفسير ورواها عنهم هؤلاء العلماء الأعلام بحسن نية ، وكان أولى بهم أن ينزهوا تفسير القرآن عن هذا الهراء .

* * *

● أضواء على المحاولات العصرية لتفسير القرآن الكريم :

لو أننا تتبعنا سلسلة البحوث التفسيرية للقرآن الكريم لوجدنا نزعة التفسير العلمى تمتد من عهد النهضة العلمية العباسية إلى يومنا هذا ، ولوجدنا أنها بدأت على هيئة محاولات يقصد منها التوفيق بين القرآن الكريم وما جد من العلوم ثم وجدت الفكرة مركزة وصريحة على لسان الإمام الغزالى ومن سلك مسلكه من العلماء ، ثم طبقت الفكرة عملياً فظهرت فى مثل محاولات الفخر الرازى فى تفسيره . ثم جدت بعد ذلك كتب مستقلة فى استخراج العلوم من القرآن وتتبع الآيات الخاصة بمختلف العلوم . . . وأخيرا راجبت هذه الفكرة لدى بعض المثقفين والعلماء رواجا عظيما نتج عنه مؤلفات كثيرة وتفاسير واسعة تسير ـ على ضوء هذه الفكرة ويطلق عليها البعض « التفسير العصرى للقرآن » غير أن هذه الفكرة لقيت من جانب بعض علماء المسلمين قديما وحديثا معارضة شديدة والامام الشاطبى رحمه الله أبرز من ظهر فى محيط العلماء القدامى بمعارضة أصحاب هذه الفكرة فى التفسير ، وفى كتابه الموافقات يقول ما نصه : « إن كثيرا من الناس تجاوزوا فى الدعوة على القرآن الحد فأضافوا اليه كل علم يذكر للمتقدمين والمتأخرين » .

وإذا ما ذهبنا نستعرض بعض ما كتب فى تفسير القرآن الكريم قديما وحديثا نجد فيه العجب من هذا التفسير العلمى أو العصرى كما يقولون ، ففى كتاب

« الجواهر فى تفسير القرآن الكريم » للمرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى عند تفسيره لقوله تعالى فى سورة البقرة : « إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » إلى قوله « فقلنا اضربوه ببعضها ، كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته »(٤) يقول « وأما علم تحضير الأرواح فإن من هذه الآية استخراجه » .

وفى التفسير العصرى يعرض بعض المتقفين المعاصرين لقوله تعالى : « فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شيء بأمر ربها »(٥) . يقول : أليس من الممكن أن تعتبر هذه الآية الشريفة اشارة مبكرة من القرآن الكريم إلى القذيفة الذرية ودليلا قاطعا على سبق القرآن العلمى الذى أمكن اثباته فى مواضع كثيرة » ؟

ولست أشك فى أن مثل هذا التفسير خروج بالقرآن عن مقصده وانحراف به عن هدفه فالقرآن لم ينزل على محمد ﷺ ليكون مصدرا لجوامع الطب وضوابط الفلك ونظريات الهندسة وقوانين الكيمياء ومعادلات الجبر وغيرها .

وليعلم أصحاب هذا الاتجاه المنحرف فى تفسير كتاب الله أن من الخير لهم ولكتابهم ألا يسلكوا هذا المسلك فى تفسيره رغبة منهم فى إظهار إعجاز القرآن وحسبهم ألا يكون فى القرآن نص صريح ولا غير صريح يصادم حقيقة علمية ثابتة وحسب القرآن أنه يمكن التوفيق بينه وبين ما يجد من نظريات وقوانين علمية تقوم على أساس من الحق وتستند إلى أصل صحيح .

وبعد أن تبين لنا أن فى كتب التفسير القديمة ما لا يتفق مع العقل ، ولا مع الحقائق العلمية الثابتة ، وأن فى كتب التفسير العصرى ما لا يقصده القرآن أصلاً ، بل وما يخرج به عن هدفه الذى أنزل من أجله !! . .

والمخرج من هذا وذاك هو أن نعمد إلى كتابة تفسير واضح وبعيد كل البعد عن هذه الشوائب القديمة والحديثة .

ولقد شرع مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر فى إخراج تفسيره الوسيط ، وهو تفسير سهل العبارة واضح المعنى ، خال من شوائب الخرافات والتعسفات التى لا تليق بجمال القرآن وجلاله .

* * *

---

(٤) البقرة : ٦٧ - ٧٣

(٥) الأحقاف : ٢٤ ، ٢٥

● طبع القرآن بالرسم الإملائي :

كتب القرآن جميعه في حياة رسول الله ﷺ وبين يديه ، وكانت كتابته على ما هو عليه الآن من مخالفته لكثير من قواعد الرسم الإملائي الحديث ، بتوقيف وإرشاد من رسول الله ﷺ وقرر جمهور علماء المسلمين وجوب إبقاء رسم المصحف على ما هو عليه ، ومنعوا من كتابته أو طبعه بالرسم الإملائي الحديث .

قال أشهب : سئل الإمام مالك : هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء ؟ فقال : لا إلا على الكتبة الأولى .

وقال الإمام أحمد : يحرم مخالفة خط مصحف عثمان في واو ، وياء ، وألف ، أو غير ذلك .

وقال البيهقي في شعب الإيمان : من كتب مصحفا فينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به تلك المصاحف ولا يخالفهم فيه ، ولا يغير مما كتبوه شيئا ، فإنهم كانوا أكثر علما ، وأصدق قلبا ولسانا ، وأعظم أمانة منا ، فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استدراكاً عليهم .

وقد ذكر العلماء ما يترتب على كتابة المصحف بالرسم الإملائي الحديث من محاذير ، منها :

تطرق التحريف إلى القرآن الكريم ، وضياع كثير من اللغات العربية الفصحى التي يحتملها الرسم العثماني . . . وغير ذلك مما لا يتسع المقام لذكره .

* * *

● محاولات مشبوهة لطبع القرآن محرفا :

مما يلفت النظر في هذه الأيام ، ظاهرة خطيرة ، ألا وهي انتشار كثير من المصاحف المحرفة في كثير من البلاد الاسلامية ، وبخاصة بين مسلمي القارة الإفريقية ، أو القارة السوداء كما يقولون .

وليس من شك في أن هذا عمل يقصد به إفساد عقائد المسلمين وزعزعة ثقتهم في القرآن بتشويهه وتحريفه بالزيادة والنقصان ، واذا فقد المسلمون الثقة في كتاب ربهم ، فماذا يبقى لهم بعده هاديا الى الحق والطريق المستقيم ؟

وأعداء الاسلام ـ وعلى رأسهم اليهود ـ هم أصحاب هذه الشنيعة

النكراء ، فالاسلام - رغم تقاعس أتباعه - لا زال ينتشر فى كثير من بقاع الأرض ، وينفذ إلى قلوب كثير من أصحاب الديانات الأخرى .

والمسلمون - رغم اعراضهم عن كثير من تعاليم الاسلام - لا يزال فيهم من قوة الروح ما يملأ قلوبهم يقينا بالله وثقة فيه ، ومن روح القرآن كانت هذه الروح التى حطمت قيود المستعمر المستبد ، ومن بقى من المسلمين ، فى أسر الذل وقيد التبعية الى اليوم يعمل جاهدا بدافع من روح القرآن على تحطيم قيده وفك إساره .

ويخشى أعداء الاسلام - واليهود ألد أعدائه - أن تتم صحوة هذا المارد العملاق ، فينطلق مبشرا بالإسلام ويفرض بالعقل والمنطق حقه الأبلج على باطلهم الذى لا يعرف الا منطق الحديد والنار .

ويفزع اليهود - وهم رأس الفساد والإفساد - الى القرآن الكريم فيحرفونه بالزيادة والنقصان ويطبعون المصاحف المحرفة ويغمرون بها الاسواق ليزعزعوا ثقة المسلمين وغير المسلمين فى القرآن ، فيرتد المسلم عن إسلامه ، وينكص غير المسلم عن الدخول فيه .

.. ولكن هيهات أن يتم لهؤلاء الأنجاس المناكيد ما يريدون ، فالله الذى أنزل القرآن يقول وقوله الحق : **« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »**(٦) تعهد سبحانه وتعالى بحفظ القرآن بنفسه ، بخلاف غيره من الكتب السماوية التى استحفظها الله الربانيين والأحبار فحرفوها .

ولقد استوثق الله لحفظ القرآن بأمرين : حفظه فى الصدور ، وكتابته فى المصاحف ، والركن الركين فى حفظ القرآن هو حفظه فى الصدور ، فمهما وقع من تحريف فى المكتوب فالمحفوظ فى صدور عامة المسلمين هو الأصل الذى يرجع إليه ويعتمد عليه .

وهنا أقف وقفة قصيرة مع ظاهرة أخرى ظهرت فى محيطنا الاسلامى لا على يد اليهود وأعداء الاسلام ، بل على يد بعض المسلمين من أصحاب دور الطباعة والنشر حيث يقومون بطبع المصاحف ولا يتحرون الدقة فى تصحيحها ، وإذا تحروا الدقة فى ذلك فإنهم يتهاونون فى الطباعة فقد تسقط بعض الحروف لا عن قصد ، فتأتى مصاحفهم محرفة ، وقد يعرفون ذلك فيغمضون أعينهم عنه . وتوزع هذه المصاحف على ما فيها من تحريف ، ولا دافع لهم وراء ذلك الا الحرص على الربح ، وهو ربح خبيث ، وعمل أثيم

---

(٦) الحجر : ٩

لا يقل عما يقوم به أعداء الإسلام ، وإدارة البحوث والنشر فى الأزهر الشريف يأتيها بين الحين والحين بعض هذه المصاحف فتأمر بإعدامها،ويقوم مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر بطبع مصحف على أدق ما يكون من التصحيح والعناية ، حتى إذا ما انتهى منه عمم نشره على المسلمين فى شتى بقاع الأرض وذلك عمل جليل يذكر له فيشكر .

* * *

محتويات الكتاب

الفصل الأول : الوحى
(٥ - ٣٠)

الصفحة

الفصل الثانى : القرآن الكريم
(٣١ - ١٠٠)

الصفحة

الفصل الثالث : علوم القرآن الكريم
(١٠١ - ١٤٨)

الصفحة

الصفحة

خاتمة : حول تفسير القرآن الكريم
(١٤٩ ـ ١٥٩)

رقم الإيداع ١٧٨٧ / ٨٦.
الترقيم الدولى ٢ - ٠٦٦ - ٣٠٧ - ٩٧٧

هذا الكتاب

« إن هو إلا وحى يوحى » . . « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم » . . « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم » . . [قرآن كريم]

الوحى - هو أحد أسرار الله تعالى - وكلامه المقدس ، وشرعه الحكيم . فهل الوحى أنواع ؟ . . منه الرؤيا الصادقة . أو الإلهام . أو تكليماً يسمعه المخاطب فقط ؟ . . وعلى منْ يتنزل الوحى . . ؟

● ومَنْ هو حامل الوحى . . ؟ هل هو جبريل فقط . . وما كنهه . . ؟ وكيف يكلمه الله . . وكيف يرسله . . ؟ . .

● وكيف نزل الوحى بالقرآن الكريم . . ولماذا نزل متفرِّقاً ولم ينزل جملة واحدة . . ؟

● وهذا الكتاب « **الوحى . . والقرآن الكريم** » يتولى الإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها . ويبين « **كيف كان يتلقى جبريل عن - الله تعالى - وكيف كان يتلقاه النبى - ﷺ - عن جبريل** » . ويشرح « **نزول القرآن متفرِّقاً ، والحكمة فى ذلك** » . . والفرق بين نزول القرآن الكريم . . ونزول الكتب المقدسة . . ثم يستعرض « **أسباب النزول . . والفرق بين : المكى - والمدنى . .** » . . وكيف كان يتم - **تدوين القرآن** - فى عهد رسول الله - ﷺ - ولماذا لم يتم جمعه فى حياته - ﷺ - . . **وكيف تم جمعه وترتيبه** فى عهد أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - **وكتابته** فى عهد عثمان بن عفان - رضى الله عنه - . . ويبدد . . « **الشبهات التى أثيرت حول وقوع الوحى . . والمعجزات المؤيدة له** » . . ويلقى الأضواء على « **علوم القرآن . . والتفسير** » . . الخ . .

● **ومؤلف الكتاب** - المرحوم - الدكتور محمد حسين الذهبى - صاحب كتاب « **التفسير والمفسرون** » والذى أثرى المكتبة الإسلامية - بعلمه الغزير - والذى استشهد - لجهره بكلمة الحق - ابتغاء مرضاة الله تعالى - يسكب لنا من علمه الواسع وإطلاعاته الكثيرة - هذا البحث الفريد . .

● **ومكتبة وهبة** : يسعدها أنها صارت « **الوحيدة** » صاحبة الحق فى نشر جميع مؤلفات - المرحوم الشهيد - . . ويسرها أن تنشر هذا الكتاب لتعرف الأمة الإسلامية ما هو « **الوحى . . والقرآن الكريم** » .

وبالله التوفيق . .

مكتبة وهبة